د.كمال وهبي ـ د.كمال ابو شهدة

مقدمة في التحليل النفسي





دار الفكر العربي
بيروت


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمــــة
فــــي
التحليــل النفســي



مقدمة في التحليل النفسي

د. كمال وهبي - د. كمال أبو شهدة



دار الفكر العربي
بيروت



دار الفكر العربي
للطباعة و النشر
كورنيش سليم سلام ـ مقابل مخفر المصيطبة
بناية الشروق ـ الطابق الاول
ص.ب. ١٤/٥٠٧٠ ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٠١/٣١١١١٤ ـ ٠١/٣١١١١٥ فاكس: ٣١٢٧٣٦

الطبعة الاولى ١٩٩٧

تمهيد

التحليل النفسي «فن علمي»، لأن تلّمس أعماق النفس الإنسانية والتعرف على مقاومات المريض وتحويلاته يخضع لأساليب التقصي العلمي. فالمقاومة والتحويل حوادث نفسية لها قوانينها التي تحكم فعلها وتفرض على المحلل النفسي كشفها كمنطلق للتحكم بها وتوجيهها.

ان الميدان المميز في عمل التحليل النفسي هو ميدان المقاومة والتحويل. ويسعى المحلل النفسي الى أن يجعل غير الشعوري شعورياً، وابراز الذكريات المكبوتة وتجاوز فقدان ذكريات الطفولة.

يؤكد فرويد أن للتحليل النفسي ثلاثة معانٍ:

- طريقة للعلاج تستخدم للتداعي الحر وتعتمد على تحليل المقاومة والتحويل.
- منظومة من النظريات في الوظائف السيكولوجية للإنسان تؤكد على دور اللاشعور.
- طريقة للبحث في وظائف عمل العقل.

فالتحليل النفسي هو:

- عملية لاستقصاء العمليات العقلية التي لا يمكن النفاذ اليها بوسيلة أخرى.
- طريقة تقوم على الاستقصاء بهدف علاج الاضطرابات العصابية.
- مجموعة من المفاهيم النفسانية التي حصلنا عليها من خلال هذه الوسيلة، وهي مفاهيم تنمو معاً كي تشكل مذهباً علمياً جديداً.

والعلم الذي اكتشفه فرويد (التحليل النفسي) ينبني على:

- ممارسة (العلاج التحليلي).
- التقنية (منهج العلاج).
- النظرية وهي ذات صلة بالممارسة والتقنية.

يتناول التحليل النفسي التقنية التحليلية (التداعي الحر، التحويل، تأويل الأحلام) في إطار تحليلي. ان الاكتشافات العيادية تستطيع أن تخلق صياغات نظرية جديدة وهذه بدورها تمنح إنتباه المحلل وأسلوبه الفني المرونة الضرورية لإكتساب أنواع جديدة من التبصّر العيادي.

ان التحليل النفسي هو أيضاً نظرية في العلاج النفسي يتناول ما يحدث في الموقف التحليلي من علاقة تفاعلية بين المحلل والمريض، كما تتجلى في مقاومات المريض ودينامية التحويل. يخضع لعلاج التحليلي النفسي المحلل الى متطلبات أكثر صلابة فيجب عليه الاصغاء الى المواد التي يقدمها إليه المريض وأن يمنح نفسه الحرية في الاندماج بصورة حرة مع ذكرياته الخاصة وتخيلاته، لكن عليه أيضاً أن يتحقق ويعمّق أنواع التبصر التي حصل عليها قبل أن يتمكن من نقلها دون أن يعرض المريض الى الخطر.

اذا أراد المحلل النفسي أن يكون لعمله قيمة علمية فإن من الضروري أن يقود على المرونة في معرفة الآخرين والحدس من ناحية، والمعرفة النظرية من ناحية أخرى.

ان نظريات المقاومة والكبت واللاشعور، وقيمة الحياة الجنسية في تعليل المرض العصابي، وأهمية الخبرات الطفلية... تلك هي العناصر الرئيسية التي يتكون منها البناء النظري للتحليل النفسي.

ان هدف العلاج التحليلي النفسي هو الكشف عن مقاومات المريض وفهمها، وبالتالي، تجاوزها، ونقل العمليات اللاشعورية الى مجال الشعور.

«ان التأكيد على وجود عمليات نفسية لا شعورية والإلتزام بنظرية المقاومة والكبت، واعطاء الأهمية للحياة الجنسية... تلك هي النقاط الرئيسية التي يعالجها التحليل النفسي».

مقدمـــة

إن خبرة أربع سنوات في مجال تدريس التحليل النفسي، أقنعتني بكتابة هذا الكتاب المتواضع، ليكون معيناً لطلابنا الأعزاء، وللمهتمين بمجال التحليل النفسي.

وما أكثر ما نلتقي بمؤلفات وترجمات للتحليل النفسي، ولكن الكتاب الجامع لكل مبادىء التحليل هو من القلة بحيث يدفع الطلبة للاستعانة بأكثر من كتاب مؤلف ومترجم.

ولصعوبة لغة التحليل ومصطلحاتها، واختلاف الترجمات للمصطلحات وتخبط الطلبة في وسط كل هذا، أقول ـ لهذه الأسباب ولأسباب أخرى جعلني أفكر بعمل كتاب في مقدمة في التحليل النفسي، يعتمد على التبسيط ولكن ليس على حساب المعنى، ويجمع هذه المادة لتكون أساساً يرتكز عليه طالب هذا العلم.

وهذا الكتاب يتألف من ستة فصول، اعتمدت منهجيته على التدرج المنطقي إبتدأ من التعريف بمؤسس هذا العلم، والفلسفة التي بنى عليها نظريته إلى المفاهيم والمبادىء التي يقوم عليها التحليل، ثم شرح مبسط للجهاز النفسي الثلاثي، ولميكانيزمات الدفاع، ثم أنتقلنا لعرض الهفوات والأحلام في الفصل الرابع لأهميتها سواء في الفهم أو التفسير.

وفي الفصل الخامس استعرضنا بعض الأمراض النفسية وتفسيرها من وجهة النظر التحليلية، واختتم الكتاب بفصله السادس الذي يحتوي على حالات شهيرة من التحليل النفسي، حاولنا إيجازها وروعي فيها الاتجاه التعليمي لطلبتنا الأعزاء.

وفي النهاية نقول: أنه بالرغم من القدم النسبي لنظرية التحليل النفسي

وبالرغم من ظهور نظريات كثيرة أتت بعد التحليل، أقول بالرغم من كل هذا، ما زالت هذه النظرية تتصدر باقي النظريات في شموليتها وقدرتها التفسيرية والتي لم ترقى إليها أي من النظريات الأخرى.

هذا إلى جانب كونها نظرية في الشخصية، ونظرية في التشخيص والعلاج. والتحليل النفسي قد بدأ مع مؤسسه سيجموند فرويد وتطور هذا العلم على أيدي المطورين والمهتمين، والآن أصبحت الاتجاهات كثيرة جداً في هذا المجال، ولكن ما من شك في أن كل النظريات الجديدة في التحليل ترتكز على المبادىء الأساسية التي وضعها فرويد.

لهذا فإنه بدون الفهم الواعي والعميق لنظرية فرويد، لا يمكن التحدث عن المجددين والمنشقين عن هذه النظرية.

وكان عنوان هذا الكتاب مقدمة في التحليل النفسي، لأنه يحتوي على شذرات من هذه النظرية والتي لو أردنا جمعها كاملة لاحتاج الأمر لمؤلفات عديدة وفي اعتقادنا أن كل هجوم على التحليل يعطيه قوة في البقاء، والى زمن بعديد مستقبلاً سيبقى الجذر العميق لكل فروع التحليليين المجددين والمنشقين.

المؤلفـان

صنعاء في ١٩٩٧/١/١

الفصل الأول

أ ـ موجز عن حياة فرويد

ب ـ مصادر المعرفة التي استند اليها فرويد

جـ ـ الفرضيات الاساسية التي بنى عليها فرويد نظريته



أ ـ موجز عن حياة فرويد

ولد سيغموند فرويد في ٦ أيار ١٨٥٦ في قرية صغيرة تسمى فرايبرغ بمورافيا، والتي تتبع حالياً تشكوسلوفاكيا ابوه كان تاجراً بسيطاً للصوف يدعى «ياكوب فرويد» هاجر من موطنه في أوكرانيا بالاتحاد السوفيتي الى فيينا في سنة ١٨٦٠.

وكان عمره انذاك اربع سنوات.

وفي جامعة فيينا تخرج من كلية الطب، وكان فرويد الابن يهوى المعرفة بشكل عام، ولكنه بعد ذلك أخذ بمقولة مقيستود.

بحثا تصول وتجول في دروب العلم كلها

فكل امرىء لا يتعلم غير ما يستطيع تعلمه[١]

وفي عام ١٨٨٥ أصبح محاضراً جامعياً في الامراض العصبية وكان مهتماً بدراسة النخاع الشوكي والبصلة السيسائية.

وتخصص الأمراض العصبية لم يكن ذائع الصيت أنذاك في فيينا.

لذلك سافر الى فرنسا وعمل مع «شاركو» في بعض البحوث عن الهستيريا ثم عاد الى فيينا ونشر مع بروير في سنة ١٨٩٣ ـ ١٨٩٥ أي على مدى سنتين «دراسات حول الهستيريا».

وتعتبر هذه الدراسات عن الهستيريا بداية نظرية التحليل النفسي في اطارها النظري.

---

(١) غوته: فاوست، الجزء الأول مغيستو والتلميذ.

وفي سنة ١٨٩٧ تخلى فرويد عن طريقته في التنويم المغناطيسي واستبدلها بطريقة «التداعي الحر» أو «التداعي الطليق».

وبهذه الطريقة دخلت نظرية التحليل النفسي اطار العلوم التطبيقية حصل في عام ١٩٠٢ على لقب بروفسور من جامعة فيينا.

وأسس في عام ١٩١٠ «الرابطة الدولية للتحليل النفسي» ومن أهم أعضائها الى جانب فرويد، يونج، آولر، فرنتزي، ابراهام، جونز رانك، شتيكل، ساكس، وغيرهم ثم لحق بهم في عام ١٩٢٠ فيلهلم رايش.

في عام ١٩٣٠ حاز على جائزة غوته في الادب، على مقال أدبي بعنوان «الزوال».

وكان فرويد ذا ثقافة عاليه في الآدب العالمي، وبالانثروبولوجيا وأساطير الشعوب، وساعده هذا في توسيع أفقه العلمي ونظرته الواسعة.

وفي عام ١٩٣٨ هاجر فرويد الى لندن بعد احتلال النازيين للنمسا.

وتوفي في لندن في ٢٣ أيلول عام ١٩٣٩.

ب ـ مصادر المعرفة التي أستفاد منها فرويد:

١ ـ نظرية التطور لداروين[1]:

تعتبر هذه النظرية نقطة تحول ملحوظة في تفكير الانسان وآثار هذه النظرية لم تمتد فحسب الى العلوم الطبيعية، ولكن الى الفلسفة وعلم النفس ايضاً.

ولقد افادت نظرية التطور وكتاب داروين «أصل الأنواع» علماء النفس ومنهم فرويد، في تأكيدها على مبدأ الفروق الفردية، والبقاء والتوافق وأهمية الوراثة ودورها.

---

(١) سيكولوجية الشخصية، سيد محمد غنيم، ص ١٢.

٢ ـ الأدب القديم والحديث:

كانت نظرة فرويد ثاقبة وبعيدة، واستطاع أن يوظف كثيراً من الأدب في خدمة نظريته، واستعار بعض من المصطلحات من هذا الأدب مثل «عقدة أوديب» «الوليمة الطوطمية» «الخطيئة الأصلية» كما أنه استفاد من قصص التوراة، والإنجيل، لتأكيد كثيراً من افكاره.

٣ ـ التنويم المغناطيسي:

والتنويم طريقة تعتمد على الايحاء للوصول بالمريض الى حالة من النوم الاصطناعي، وتختلف عن النوم الطبيعي في أن التنويم المغناطيسي لا تنقطع فيه علاقة النائم بالمثيرات الخارجية كلياً بل يبقى من هذه المثيرات صوت المنوم وقدرة النائم على الاستجابة.

وكانت تستخدم هذه الطريقة في أيام فرويد، ولكن كان الكثيرون ينظرون اليها على أنها من الشعوذة.

ولقد أستخدمها فرويد في علاج حالات الهستيريا للتعرف على بعض مكنونات اللاشعور، وأيضاً ليثبت وجود هذا الاخير أمام العلماء آنذاك وتخلى فرويد عن طريقة التنويم المغناطيسي في سنة ١٨٩٧ ليستبدلها بطريقة (التداعي الطليق).

٤ ـ بعض العلماء والاطباء الذين عمل معهم فرويد:

أ. أرنست بروك[١]:

أسس بروك مختبراً للفيزيولوجيا، وعمل فرويد في هذا المختبر من ١٨٧٦ - ١٨٨٢ في دراسة أنسجة الجهاز العصبي.

وقد ذكر فرويد في كتابه «حياتي والتحليل النفسي» أسم بروك وكان يلقبه بـ العظيم.

---

(١) حياتي والتحليل النفسي، سيغموند فرويد ترجمة جورج طرابيشي ص ١١.

ب. مينـــرت[1]:

ومينرت طبيب مشهور للأمراض العصبية، رئيس عيادة الطب النفسي في مستشفى فيينا العام، كان فرويد يكن له اعجاباً كبيراً.

وقضى فرويد ستة شهور في القسم الذي كان يرأسه، وعمل بحوثاً عن النخاع الشوكي لنوع من ادنى الأسماك.

وأنتقل بعدها الى الجهاز العصبي للإنسان.

ج. جـان مارتـن شـاركـو[2]:

طبيب فرنسي اشتهر بدراساته في الامراض العصبية وبخاصة الهستيريا وكان يعمل ويحاضر في مستشفى سالبترييز بباريس واستفاد فرويد كثيراً من بحوث شاركو عن الهستيريا.

د. بـيـير جانيـه[3]:

من رواد علم النفس التجريبي في فرنسا وكانت أطروحته للدكتوراه بإشراف شاركو عن الاضطرابات العصبية للهستيريين، وشغل منصب مدير المختبر في مستشفى السالبترييز، واتجهت به أبحاثه نحو توكيد أهمية اللاشعور في الحياة النفسية.

وشيع أن فرويد قد استفاد من نظرية جانيه، ثم تنكر لها.

وفرويد يؤكد أنه لم يلتقي أو يستفيد من بحوثه نهائياً.

هـــ. برويـــر[4]:

كان «بروير» من أبرز الأطباء الممارسين الذائعي الصيت في فيينا وكان له

---

(١) حياتي والتحليل النفسي، سيغموند فرويد ترجمة جورج طرابيشي ص ١٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٤.

(٣) المرجع السابق ص.١٥.

(٤) المرجع السابق ص ٢٥.

ماضياً علمياً، حيث كان الطب يدين له بعدة بحوث قيمة عن فيزيولوجيا التنفس، وعن عضو التوازن.

ويعترف فرويد أنه استفاد من بروير كثيراً في فهم العصاب.

و. شروباك[1]:

من مشاهير أطباء الامراض النسائية في فيينا، عهد الى فرويد بمعالجة مريضة بالهستيريا، مشيراً الى وجوب البحث عن علة مرضها في حياتها الجنسية.

ى. هافلوك ايليس[2]:

طبيب انكليزي من أعظم علماء الحياة الجنسية في القرن العشرين ولقد لفتت كتابات «ايليس» نظر فرويد الى أهمية الحياة الجنسية في الهستيريا.

ـ مدخل في نظرية التحليل النفسي:

لا بد قبل عرض أي نظرية من التعرف على طبيعة هذه النظرية، وأهدافها ومنهجها.

وأهداف نظرية التحليل النفسي لا تختلف عن اهداف العلم بشكل عام فالفهم والتفسير هو هدف الإنسان على مر العصور وحتى عندما كان الانسان يلجأ الى السحر والخرافة والغيبية فهدفه في هذا كان الوصول الى الفهم والتفسير، وفي هذا الهدف لا يختلف التفكير الخرافي والتفكير العلمي.

ولكن ما يجعل أي بحث علمياً أو خرافياً هو المنهج المتبع للوصول الى هذا الفهم والتفسير.

ونظرية التحليل النفسي تعتبر ثورة في هذا المجال فكانت الدراسات الفلسفية التأملية تدخل في تفسير الظاهرات النفسية، ولم يتمايز علم النفس كعلم الا بعد اعتماده على المنهج العلمي في دراسته.

---

(١) حياتي والتحليل النفسي، سيغموند فرويد ترجمة جورج طرابيشي ص ٣١.
(٢) المرجع السابق ص ٣٢.

ـ وكثيراً ما نخلط ما بين المنهج العلمي والتجريبي، فكل شيء قابل للتجريب هو علم، وأي شيء غير قابل للتجريب ليس علماً.

وهذه المزاوجة ما بين العلمي والتجريبي هي مزاوجة سطحية يختبىء وراءها بعض المتحمسين للمنهج التجريبي.

وهنا علينا أن نحدد ونؤكد أن لكل فرع من المعرفة طبيعته الخاصة ومنهجه الخاص به. فعلم الفلك لا يعتمد على التجريب، ولا يستطيع أحد أن يتهمه بأنه ليس علماً وذلك لطبيعة هذا المجال.

وعلم النفس، ـ وبدون مبالغة ـ هو من أكثر العلوم تعقيداً وهذا يعود لموضوع علم النفس، فالظاهرات النفسية هي ظاهرات معقدة لا نستطيع أن نحللها لعناصرها الأولية ـ كما هو الحال في العناصر الفيزيائية البسيطة ـ لهذا فإن المنهج العلمي الذي يدرس هذه الظواهر لا بد وأن يتناسب أولاً مع طبيعة هذا العلم، وأن يكون معقداً كتعقيد الظواهر التي يدرسها..

وحتى يتضح لنا مدى تعقد الظواهر النفسية فسنتتبع ظاهرة نفسية واحدة ونحللها لعناصرها الأولية.

فأية ظاهرة نفسية لا بد وأن تتكون من:

١ـ الادراك.

٢ ـ الوجدان.

٣ ـ النزوع.

والادراك هو عملية نفسية معقدة يبدأ باحساسات خارجية أو داخلية تنتقل من أعضاء الحس عند الانسان عبر أعصاب موردة خاصة الى مراكز خاصة في الدماغ، والمعلومات أو المثيرات المنقولة الى الدماغ تخضع الى عمليات معقدة من التحليل في المراكز الدماغية ويؤثر فيها خبرة الفرد السابقة وحالة الفرد الآنية أي (الموقف الاجتماعي المتعاصر) كما وستؤثر فيه الحالة الوجدانية الانفعالية التي تنتج عن هذه الادراكات.

وهذه الحالة الوجدانية ليست بمكون بسيط فهي مجموعة من الانفعالات

المعقدة والتي تعطي في النهاية حالة مزاجية معينة على طول متصل يبدأ من الفرح الشديد وينتهي بالكدر الشديد.

ثم بعد هذا يبدأ النزوع أو السلوك، والسلوك أيضاً عملية معقدة ويتضمن مجموعة كبيرة من الحركات البسيطة التي تقوم بها مجموعة من العضلات المعينة. وهذه هي صورة مبسطة لأي ظاهرة نفسية بسيطة، والهدف من عرضها أن نبين مدى تعقد الظواهر النفسية.

وحتى نستطيع أن نصل الى فهم الظواهر النفسية لا بد وان تكون نظرتنا لها متكاملة، وأن ننطلق في فهمنا لها من ديناميتها.

فالانسان كائن متغير في كل لحظة، ويعمل كوحدة كلية لا تقبل التجزؤ لذلك فأن أي دراسة تستبعد جزءاً من الظاهرة النفسية، لا شك بأنها ستكون قاصرة، ولا تصيب شيئاً من المعرفة.

والخاصية الثانية من خصائص المنهج العلمي هي الضبط والتحكم ويعني القدرة على التحكم بالمتغيرات للوصول الى هدف معين. وهنا لا بد وأن نقف قليلاً فإن الظاهرات النفسية المعقدة، لا نستطيع أن نصل الى ضبطها والتحكم فيها، ومهما حاولنا أن نستخدم من أساليب فنية لضبط هذه المتغيرات فستذهب جهودنا سداً.

ولا يتحقق التحكم في الظاهرة الا اذا فهمنا - فهماً علمياً - الظروف والعلاقات بين المتغيرات، ولهذا فإنه لا يوجد منهج يستطيع أن يدعي قدرته على ضبط المتغيرات ومن ثم التحكم بها.

والخاصية الثالثة هي التنبؤ.

والقدرة على التنبؤ تتبع القدرة على الضبط والتحكم ولهذا فإننا نكتفي بالوصول الى حد أدنى من هذه القدرة.

وحتى تكتمل صورة العجز التي تواجهنا في سعينا وراء الوصول الى حقائق موضوعية، علينا أن نعترف بفارق أساسي يميز العلوم الطبيعية عن العلوم الانسانية بشكل عام وعلم النفس بشكل خاص.

فالحالات الخاصة - في العلوم الطبيعية - للقانون نجدها قليلة جداً. بينما هذه الحالات تكاد تكون هي القانون في علم النفس.

ونظرية التحليل النفسي أخذت على عاتقها الخاصية الأولى وسعت دائماً للوصول الى الفهم العلمي للظواهر النفسية مستعينة ببعض المفاهيم الأساسية مثل «اللاشعور» «وميكانيزمات الدماغ».. الخ.. ولا ينال من قيمة هذه النظرية استخدامها لهذه المفاهيم المساعدة على الفهم والتفسير خصوصاً وان العلوم الأخرى تزخر بمثل هذه المفاهيم. وعدم الدقة في الضبط والتحكم والتي أخذ على هذه النظرية فهذا لا يعود الى المشتغل في علم النفس عامة ورائد التحليل النفسي خاصة ولكن يعود الى مشكلة فنية تتعلق بالجانب الأخلاقي أولاً فمن منا يقبل أن يخضع الإنسان الى التجارب الدقيقة وأن يصبح «فأر مختبر» أعتقد أن هذا العائق الأخلاقي هو الذي منع علم الوراثة وعلم النفس من التقدم ومجاراة العلوم الأخرى.

وهذا النظر الموجه للتحليل النفسي ينطبق على علم النفس بشكل عام.

الديناميات النفسية:

الوظائف النفسية يجب أن نتناولها من خلال قاعدتها البيولوجية العضوية، وخاصة وظائف الجهاز العصبي.

فأهم وظيفة من وظائف الجهاز العصبي هي قابلية هذا الجهاز للاستثارة وأبسط عملية عصبية مكتملة هي «المنعكس العصبي».

فأي استثارة تستتبع ميلاً الى الافراغ، وبين الاستثارة والافراغ توجد عمليات وسيطة، ودراسة هذه العمليات الوسيطة تعتبر الموضوع المباشر لعلم النفس، فبغير هذه العمليات الوسيطة لا يوجد نفس بل منعكسات عصبية فقط.

وهذه العمليات الوسيطة تتكون ولا شك من قوى مختلفة وغالباً ما تكون هناك قوى مضادة لقوى الاستثارة.

وعلى هذا فان التحليل النفسي لم يدرس الظواهر النفسية كأفعال منفردة بل درسها بلغة عمليات النمو، والتغير ارتقاءً أو نكوصاً.

والحوافز الغريزية موجودة في الانسان كطاقة دافعة تدفع الانسان الى تفريغ هذه الطاقة وذلك بهدف خفض مستوى الاثارة.

فالفرد يستشعر نفسه مدفوعاً بهذه القوى، ولكن البيئة وما تصنعه على الفرد من قيود تلعب دور قوى مضادة لهذه الطاقة الغريزية، والصراع المتولد من هذه القوى المتضادة يشكل الاساس للظواهر النفسية.

ولكن تؤكد نظرية التحليل النفسي على أن الظواهر النفسية من طبيعية غريزية لا تشمل كل الظواهر النفسية فهناك ظواهر ليست غريزية.

ولكن ينبغي تفسيرها باعتبارها نتاجاً لتأثير المثيرات الخارجية على الحاجات البيولوجية.

فالجانب اللاغريزي من النفس البشرية ينشأ من خلال نضال في سبيل التفريغ أو عدم التفريغ.

ومع هذا فعلينا أن لا نسيء الفهم بالنسبة لما هو غريزي فمعنى Trieb[1] الذي استخدمه فرويد لا يعني نفس المصطلح السائد في الترجمة الإنكليزية instinct فالمصطلح الإنكليزي يشير الى نموذج وراثي جامد.

لا يفيد معنى الجمود، بل على العكس تتغير في هدفها وموضوعها تحت تأثيرات بيئية واجتماعية.

ومعروف لدى البيولوجيين أن الفرد لديه ميل حيوي أساسي الى ازالة التوترات المتولدة عن المثيرات الخارجية، والداخلية.

ونسوق هنا تصوراً قدمه «كانون» المبدأ «اتزان وظائف البدن».

«ان الكائنات الحية، التي تتألف من مادة تتميز الى أقصى حد بعدم الثبات وعدم الاستقرار، قد تعلمت على نحو ما طرائق الابقاء على الثبات والاستقرار في مواجهة شروط من المرجح أن تنكشف مثيرة لاضطراب عميق».

---

(١) فينخل، نظرية التحليل النفسي في العصاب، ترجمة مخيمر، ص ٤٥.

وهذا المصطلح لا يفيد الثبات والسكون، فالوظائف الحيّة على العكس هي الى اقصى حد مرنة، ومتحركة، ويضطرب اتزانها بلا انقطاع ولكن الكائن الحي يقيمه من جديد، بلا انقطاع.

وهذا المبدأ هو نفسه الذي عبر عنه فرويد، مستشهداً بمصطلح «مبدأ الزفانا» عند «باربارالو».

والهدف النهائي في هذه المبادىء هو الابقاء على التوتر عند مستوى معين مميز للكائن العضوي أو «الحفاظ على مستوى الاثارة» كما أشار فرويد في وقت باكر - أكثر منه الازالة التامة لكل توتر.

ولكننا نجد في سلوك الكائن ما يناقض هذا المبدأ للوهلة الأولى فهناك سلوك عند الكائن أسماه الدكتور صلاح مخيمر «أشتهاء المثير» ولكن علينا النظر الى مثل هذا السلوك على أنه تعقيد ثانوي فرضته على الكائن الحي قوى اجتماعية.

الاقتصاديات النفســـية:

ان أي نشاط للكائن يستلزم طاقة بالضرورة وهذه الطاقة الموجودة لدى الكائن تخضع لنفس قوانين الاقتصاد في استهلاكها فهناك طاقة واردة وطاقة مستهلكة، وطاقة متبقية، وتتوزع الطاقة على الأجهزة النفسية فهناك طاقة غريزية تجاهد للافراغ وهناك طاقة مضادة لهذا التفريغ. وكلما كانت الطاقة المضادة للافراغ كبيرة، كانت محصلة الصراع لهذه القوى في صالح القوى المانعة للافراغ.

وحتى يتضح لنا معنى هذا الصراع للقوى سنسوق هذا المثال التوضيحي شخص ما لديه متجه عدواني تجاه أبيه نتيجة لموقف احباط معين، وهذا يعتبر قوة تتجه الى التفريغ.

ولكن لدى هذا الشخص ايضاً قيماً اجتماعية تمنعهُ من تفريغ هذه العدوانية المتجهة نحو الأب فتقوم بقمعها او كبتها (أليات دفاع).

فهاتان القوتان المتعاكستان ستستهلكان في هذا الموقف ونتيجة هذا الصراع سيتحدد سلوك الكائن.

فإن كانت هذه القيم الاجتماعية المتمثلة لدى هذا الكائن قوية فستؤدي غرضها ولن تسمح بظهور هذه العدوانية على الاقل بشكل شعوري.

أما إذا كانت هذه القيم ضعيفة فستكون محصلة الصراع لصالح العدوانية وكلما استهلكت الطاقة في صراعات داخلية، فإن الكائن يكون أميل الى التعب السريع ولأقل مجهود وذلك بدون القيام بعمل ظاهر.

وهذا ما نجده في حالات الاكتئاب، وحالة الهيبوكوندريا.

وكثيراً ما تتفجر الأعصبة عند البلوغ وعند سن اليأس ويفسر هذا بأن الطاقة المانعة للافراغ لم تعد تكفي في هذا السن حيث تزداد القوى الغريزية التي تتجه الى الافراغ فتنغمر الشخصية وهذا التصور الكمي للاقتصاديات النفسية يمكننا الاستدلال عليه ولكن لا نستطيع قياسه مباشرة، رغم أن مظاهره الفسيولوجية لا تخفى على أحد...

ـ الشعور واللاشعور:

من ضمن الفرضيات الأساسية التي بنى عليها فرويد نظريته تقسيم العمليات النفسية الى شعورية وعمليات لا شعورية.

والشعور هو ذلك الجزء الذي نستطيع أن نحسه وندركه ونعيشه عن طريق الوعي، وأي فكرة شعورية هي حالة مؤقتة تستمر لفترة وجيزة سرعان ما تبتعد عن مجال الشعور، وهذه الفكرة يمكن استعادتها الى الشعور تحت ظروف معينة..

وعندما نستطيع اعادتها لتصبح شعورية تكون قبلها في مكان يسمى ما قبل الشعور أو بمعنى آخر تكون موجودة بشكل كامن لا يعيها الشخص إلاّ ببذل بعض المجهود لتغدو شعورية.

وهناك الجزء الرئيسي وهو موجود فينا وحالة الكنون فيه دائمة ولا يستطيع أن ينتقل الى الشعور، ويسمى اللاشعور ولا يمكن ازالة القوة المقاومة لجعله شعورياً الا على اساس التحليل النفسي الذي يتم بواسطته جعل الأفكار المقاومة شعورية[1].

---

(١) فرويد ـ الذات والغرائز ـ ترجمة محمد عثمان نجاكي ـ النهضة المصرية ١٩٦١ ص ٢٤.

وعلى هذا فهناك نوعان من اللاشعور.

النوع الاول هو ما قبل الشعور ويمكنه أن يصبح شعورياً تحت ظروف معينة..

النوع الثاني هو اللاشعور وهذا من الصعب أن يصل الى الشعور إلاّ تحت تأثير العلاج التحليلي.

ويشدد فرويد على أهمية اللاشعور في الحياة النفسية للانسان ويعتبره الجزء المركزي في هذه الحياة[1].

ونستطيع تشبيه الحياة النفسية بسفينة في البحر، فالجزء الظاهر منها هو الشعور.

والجزء القريب من سطح الماء والذي يظهر ثم يختفي تحت تأثير حركة السفينة وسط الأمواج هو الجزء الذي أسميناه ما قبل الشعور.

أما الجزء الثالث والذي لا نستطيع رؤيته هو اللاشعور ويتكون من الجزء الاكبر الفاعل تحت سطح الماء.

ونستطيع الاستدلال على وجود اللاشعور عن طريق ملاحظة تأثير الايحاء بعد عملية التنويم المغناطيسي.

كذلك فإن نسيان اسم يجعلنا ذاتياً نستشعر ذلك. فنحن نعرف أننا نعرف الاسم ومع ذلك فما نزال لا نعرفه[2].

أيضاً ومع ذلك حالة الفتاة الهستيرية (الخوف والتقزز من الماء) في الفصل السادس (حالات من التحليل النفسي) في هذا الكتاب.

---

(١) الشخصية في ضوء التحليل النفسي ـ د/ فيصل عباس ـ دار المسيرة (بيروت) ١٩٨٢ ص ٦٣.

(٢) نظرية التحليل النفسي في العصاب ـ فينخل ـ ترجمة د. صلاح مخيمر ـ الانجلو المصرية ١٩٦٩ ص ٥١.

الفصل الثاني

وجهات النظر الدينامية
والاقتصادية والبنيوية



الديناميـات النفسيـة

إن سيكولوجيّة التحليل النفسي تستهدف اكثر من مجرد الوصف فهي تفسر الظواهر النفسية بحسبانها نتيجة لتأثيرات متبادلة ومتضادة بين القوى اي دينامية..

والتفسير الدينامي هو ايضاً نشوئي وذلك بالنظر الى أنه يدرس الظاهرة ليس فحسب من حيث هي كذلك بل أيضاً من حيث القوى التي ولدت هذه الظاهرة فهو لا يدرس افعالاً منفردة بل يدرس الظواهر بلغة عمليات النمو، ارتقاءً اونكوصاً.

وثمة نوع خاص من الظواهر النفسية ونعني الحوافز الغريزية يعيشها الشخص مباشرة «طاقة دافعة» وبعض الادراكات تتميز بطابع من الاستفزاز أي إنها تضغط للفعل في التو: فالفرد يستشعر نفسه مدفوعاً بقوى متفاوتة الشدة ويربط هذه الخبرة بنموذج المنعكس ويمكن افتراض أن الحوافز الغريزية تتسم بميل عام الى خفض مستوى الاثارة بافراغ التوترات التي ولدتها منبهات مثيرة والقوى المضادة..

وعلى ذلك فالتحليل النفسي يفترض أن كل الظواهر النفسية من طبيعة غريزية ويعني هذا أن الظواهر اللاغريزية ينبغي تفسيرها باعتبارها نتاجاً لتأثير المثيرات الخارجية على الحاجات البيولوجية. فالجانب اللاغريزي يمكن فهمه على أنه مشتق عن نضال متوالد بتأثير العالم الخارجي نضال في سبيل الافراغ أو ضد الافراغ.

لقد وضع كثير من البيولوجيين افتراضاً تعددت صوره مؤداه وجود ميل حيوي اساس الى ازالة التوترات المتولدة عن الاثارة الخارجية، والعودة بالطاقة الى الحالة التي كانت عليها قبل الاثارة.

واخصب تصور في هذا الصدد هو الصياغة التي قدمها «كانون» لمبدأ «اتزان وظائف البدن» «الهوميوستازيس» إن الكائنات الحية التي تتألف من مادة تتميز الى اقصى حد بعدم الثبات وعدم الاستقرار قد تعلمت على نحو ما طرائق الابقاء على الثبات والاستقرار في مواجهة شروط من المرجح أن تنكشف مثيرة لاضطراب عميق ومصطلح الهوميوستازيس لا يفيد شيئاً ثابتاً ساكناً راكداً.

كان ذلك هو نفس المبدأ الاساسي عند فخنر عندما تحدث عن مبدأ الثبات وعلينا أن نتبين الهدف النهائي لكل هذه الميول التعادلية على أنه الابقاء على التوتر عند مستوى معين مميز للكائن العضوي أو الحفاظ على مستوى الاثارة كما اشار فرويد لذلك باكثر منه الازالة التامة لكل توتر..

ومن الممكن أن نتبين أن مبدأ «الهوميوستازيس» هذا لا يمضي بدون معارضة فبعض السلوك يتجه فيما يبدو لا الى التخلص من التوتر ولكن بالاحرى الى خلق توترات جديدة والمهمة الاساسية لعلم النفس أن يدرس ويفهم القوى المضادة التي تستهدف اغلاق او تأجيل الافراغ المباشر.

ومع ذلك فإن هذا الفهم لا يمكن أن يتحقق اذا ما حاولنا التميز بين غريزة هوميوستازية وغرائز اخرى لا هوميوستازية.

الهوميوستازيس في اصل كل سلوك غريزي أما السلوك الشائع «ضد الهوميوستازيس» فينبغي تفسيره على أنه تعقيد ثانوي فرضته على الكائن الحي قوى خارجية. إن زلات اللسان والاخطاء والافعال ـ الاعراض هي خير امثلة للصراعات ما بين الكفاحات من اجل الافراغ والقوى المضادة لها فرغبة بعينها طردت اما نهائياً «الكبت» واما في رغبة بعدم التعبير عنها هنا والان تجد لها في مواجهة الارادة الشعورية المعارضة لها تعبيراً محرفاً...

وعندما تكون الميول للافراغ والميول الكافة متساوية في قوتها لا توجد علامات خارجية على النشاط بل تستنفذ الطاقة في نضال داخلي غير مرئي ويتجلى ذلك من الناحية الاكلينيكية في أن الافراد الذين يعانون هذه الصراعات يظهر عليهم التعب والإنهاك دون القيام بعمل ما.

الاقتصاديات النفسية

ومما سبق نصل الى مفهوم اسماه فرويد بالاقتصاديات النفسية فالاشخاص السابق ذكرهم ظهر عليهم التعب لانهم كانوا يستنفذون الطاقة في صراع بين قواهم الداخلية فعندما يكبح شخص غضبه ثم يستجيب بعد ذلك في موقف اخر بعنف لاثارة تافهة فينبغي أن يقرر بأن الغضب الذي كبح كان ما يزال في حالة نشاط في داخلة كميل للافراغ ثم انتهز بعد ذلك اول فرصة متاحة فطاقة القوى التي وراء الظواهر النفسية قابلة للازاحة والحفزات القوية التي تتطلب الافراغ هي اكثر استعصاء على التكبير من الحفزات الضعيفة ومع ذلك يمكن تكبيلها إذ ما كانت القوى المضادة لها مساوية لها في القوى اما كنية الاثارة التي يمكن للفرد ان يتحملها دون افراغ فهي مشكلة اقتصادية ومن ثم تبادل الطاقة النفسية وتوزيع اقتصادي للطاقة المتاحة ما بين وارد ومستهلك ومتبقي ومثل ذلك هو أن كثيراً ما تتفجر الاعصبة عند البلوغ وعند سن اليأس.

فالشخص المصاب كان يقتدر على احتمال قدر بعينه من الاثارة الغريزية غير مفرغة ولكن عندما أدت التغيرات البدنية الى زيادة الكمية المطلقة للاثارة لم تعد الاجراءات المضادة كافية فالشخص الذي ظهر عليه التعب دون أن يبذل أي جهد إنما يمثل حالة خاصة من الكفوف العامة الناجمة عن المهام الداخلية الخرساء. والاشخاص الذين لديم مشكلات داخلية تتطلب الحل يتحتم عليهم ان يفردوا لها قدراً كبيراً من طاقاتهم فلا يتبقى للوظائف الاخرى الا القليل.

البنيـة النفســية:

إن الظواهر النفسية ينبغي النظر اليها على أنها نتاج تفاعل قوى بعضها يضغط في اتجاه الحركة وبعضها بعيداً عنها والكائن الحي هو في صلة بالعالم الخارجي عند بداية ونهاية عمليات استجابته هذه التي تبدأ بادراك المثيرات وتنتهي بافراغ حركي أو غددي وينظر فرويد الى الجهاز النفسي كانه جسم يطفو فوق الماء فسطحه يستقبل المثيرات التي ينقلها وينقلها الى الداخل وهذا الذي ينطلق منه حفزات الاستجابة الى السطح وتدريجياً يتميز السطح بالنظر الى وظائفه الخاصة بإدراك المثيرات والافراغ وهنا تعمل «الانا» بطريقة انتقائية في استقبالها للمدركات وكذلك في سماحها للحفزات بالبلوغ الى الحركة فالا تعمل كجهاز كفّ......

إن الأنا تستحدث قدرات بها تستطيع أن تلاحظ وتنتقي وتنظم المثيرات والحفزات ووظائف الحكم والذكاء كذلك تستحدث الأنا طرق تمنع الحفزات المرفوضة من الحركة وذلك باستخدام كميات طاقة تحتفظ بها في حالة استعداد لهذا الغرض أي إنها تغلق الميل الى الافراغ...

وتحول العملية الاولية الى عملية ثانوية وكل ذلك يتم بفضل تنظيم خاص يستهدف انجاز مهامه المختلفة بأقل جهد ممكن «مبدأ تعدد الوظيفة»..

وتحت السطح المنظم للأنا يقع الهو المكون من القوى الدينامية الدافعة التي تجاهد للافراغ والتي تستقبل دون انقطاع مثيرات جديدة من الادراكات الخارجية والداخلية وهذه المثيرات تتأثر بالعوامل البدنية التي تحدد الطريقة التي تعاش بها الادراكات.

وهنا الأنا تعمل كدور وسيط ما بين الكائن والعالم الخارجي. إن مهمة علم النفس الدينامي هي أن يقيم ابتداء من مظاهر بعينها من انتشار القوى التي ولدت هذه المظاهر فمن وراء الصورة الظاهرة المتغيرة تقوم أسسها الدينامية حفزات تجاهد في سبيل الافراغ وقوى مضادة تتطلع بالكف والجهود الاولى للمحلل يكرسها لإزالة العوائق التي تمنع هذه القوى من ان تعبر عن نفسها في صورة اكثر صراحة.

مراحل النمو النفسي:

إن تصور مراحل النمو النفسي هو تصور نسبي وهو ليس غير وسيلة افضل للتوجه في فهم الوقائع فمن الناحية العملية تنساب بالتدريج جميع المراحل الواحدة فالاخرى وتتداخل وعندما نرغب في دراسة مراحل النمو النفسي كما قسمها فرويد فعلينا أن نبدأ بالانسان منذ بداية ولادته «الطفل» وبناء على ذلك علينا أن ندرس حياة الطفل الجنسية فنبدأ بتوضيح عام واساسي كقاعدة في هذا الشأن الا وهو «الليبيدو» فالليبيدو مشابه للجوع بشكل عام ويشير الى القوى التي تتظاهر بها الغريزة الجنسية مثلما يشير الجوع الى القوى التي تتظاهر بها غريزة امتصاص الغذاء وثم مفاهيم اخرى كالاثارة والتلبية الجنسية لا تحتاج الى شرح وتفسير فأولى التظاهرات الجنسية لدى الرضيع ترتبط بوظائف حيوية اخرى فاهتمامه الرئيسي ينصب على امتصاص الغذاء.. وحين ينام على صدر أمه وقد اصاب حظاً وافراً من الغذاء يبدو عليه امارات الرضا والارتياح نظيراً ما سيبدو منها لاحقاً حين سيفوز بالتلبية الجنسية غير إن هذا وحده لا يكفي لتخلص منه الى نتيجة محددة ولكننا نشاهد أن الرضيع ينزع على الدوام الى معاودة امتصاص الغذاء لا لأنه لا تزال به حاجة اليه بل لمجرد تكرار حركات الرضاعة فنقول عنه حينئذ انه يقوم بعملية للمص لا للتغذية ويتابع على هذا المنوال الى ان يأخذه النوم من جديد وقد بدأ علية الارتباط مما يدلنا الا ان فعل المص وفر بحد ذاته لذة ومتعة وينتهي به الامر في العادة الى عادة لا يستطيع النوم معها دون ان يقوم بعملية المص ولو كان الرضيع يملك أن يفصح عما يشعر به لصرح بلا شك ان مص ثدي الام هو الفعل الأهم في الحياة ولن يكون مخطئاً كل الخطأ في قوله هذا لانه يلبي عن طريق هذا الفعل حاجتين كبيرتين من حاجات الحياة وليس لنا أن نفاجيء بعض الشيء حين يكشف لنا التحليل النفسي عن عمق الاهمية النفسية لهذا الفعل الذي تبقى اثارته مدى الحياة(١)..

ويغدو فعل مص ثدي الام نقطة الانطلاق للحياة الجنسية باسرها والمثل الاعلى الذي يعزز ادراكه في كل تلبية جنسية لاحقة والذي يصبو اليه الخيال في ساعات الحاح الحاجة واشتداد الحرمان وهكذا يؤلف ثدي الام الموضوع الاول للغريزة الجنسية.

---

(١) النظرية العامة للأمراض العصابية «فرويد» ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت ص ٩٢ - ٩٣.

وإن لهذا الامر بكل تحولاته واستبدالاته في اقصى تبدلات حياته النفسية له تاثير هام فالطفل إذا ما أجبر على ترك مص ثدي الأم يستعيضه عنه بمص جزء من جسمه بالذات فهو يمص ابهامه او لسانه وبذلك يتدبر لنفسه لذة بدون أن تكون به حاجة الى موافقة العالم الخارجي ثم إن التجائه الى منطقة ثانية من جسمه يزيد من شدة تهيجه ولا تتساوى جميع المناطق الشهوية في فاعليتها ولذا فانه لحدث بالغ الاهمية في حياة الطفل حين يكتشف لدأ به على تحسس جسمه للاجزاء القابلة للتهيج اكثر من غيرها أي اعضائه التناسلية وهكذا لا بد من أن ينتهي الى الطريق الذي يقوده يوماً الى الاستنماء.

ولأهمية فعل المص فإنه ينطوي على خاصيتين اساسيتين للجنسية الطفلية فهذه الجنسية ترتبط باشباع الحاجات العضوية الكبرى كما ان مسلكها ذاتي أي إن الرضيع يلتقي مع مواضيعها في جسمه بالذات ويتضح هذا اكثر في فعل امتصاص الغذاء الذي يتكرر جزئياً بفعل الاخراج ويستنتج من ذلك إن اخراج البول ومحتويات الامعاء هو عند الطفل مصدر لذة ومتعة وانه سرعان ما يعمل على تنظيم هذه الافعال بحيث يحصل على اكبر قدر ممكن من اللذة بفضل ما يصاحب هذه العملية من تهيج للمناطق الشهوية في الاغشية المخاطية وعندما يحاول المرء تنظيم هذه الكثرة من الظواهر الجنسية الطفلية تستلفت نظره فترة تقل فيها نسبياً هذه الظواهر وتتضائل فيها هذه المظاهر الجنسية المباشرة من حيث العدد والشدة تلك هي فترة الكمون التي تمتد من السادسة حتى البلوغ وصحيح إن المظاهر الجنسية لا تختفي قط تماماً ولكن تختلف من ثقافة لاخرى وفي ثقافتنا نجد كثيراً من الاطفال لا يتخلون عن استمنائهم خلال هذه السنوات ولكن حتى في هذه السنوات فان الجنس لا يكون في الصدارة بقدر ما يكون قبلها ربقدر ما سيكون بعدها[١].

---

(١) نظرية التحليل النفسي في العصاب / د. صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق، مكتبة الانجلو المصرية ص ١٦٠، ١٦١.

المرحلة الفمية «المرحلة المعوية»:

وهذه هي مرحلة البداية من مراحل النمو النفسي والمسماة بانتظام الليبيدو وفي عرض مرحلة نمو الأنا يتضح تحقيق الارتباط وخبرات الجوع والشبع وكذلك الادراكات الاولى ترتبط بضرب من الادماج الفني ويتجلى الامر بوضوح في مرحلة مص الابهام الذي هو ظاهرة واضحة في الطفل الرضيع حديث الولادة فيمكن اعتبارها منعكساً فطرياً ولكن ليس في هذا ما يمنعنا من أن نلاحظ أن هذا المنعكس يختص بنوع من الاثارة هو في العادة مرتبط بوظيفة التغذية ولكن يصبح مستقلاً عنه فمص الابهام يكشف عن أن اللذة الناتجة عن الثدي او زجاجة الرضاعة لا تنطوي فحسب عن اشباع الجوع بل أيضاً على اثارة الغشاء المخاطي الفمي المولد للشبق وإلاّ لا يعد الرضيع ابهامه خائب الامل ما دام لا يمدهُ باللبن هنا كانت الاثارة الجنسية في الاصل تستند على الحاجة الى الغذاء وبطريقة مماثلة فإن الاثارة الجنسية الباكرة قد استندت ايضاً على وظائف فسيولوجية اخرى على وظائف التنفس والاحاسيس الجلدية وعلى احاسيس التبرز والتبول وان الشبقية الفمية لها اشكال متعددة تظهر فيما بعد مثل التقبيل والممارسات المنحرفة وعادات التدخين والشراب والكحول ان هدف الشبقية الفمية هو أولاً الاثارة الشبقية الذاتية للذة المنبعثة من المنطقة الشبقية فالاستدخال الفمي هو في نفس الوقت الاداة التنفيذية للمرحلة المعوية حيث أنه يعتبر الفم اوله محطات الجهاز الهضمي المعني بالأمر وتكشف الخبرة الاكلينيكية إن اهداف الادماج الفمي غالباً ما تتسم بطابع سادي وربما يكون ذلك بتأثير عوامل معروفة او استجابة لاحباطات وليس هذا بالطبع سبباً لأن نفترض أن كل طفل يرضع ثدي امه ينطوي على رغبة في قتلها او تدميرها بطريقة سادية.

«ابراهام» لقد ميز ابراهام مرحلتين مندرجتين ضمن المرحلة الفمية مرحلة ما قبل تناقض العاطفة حيث لا يوجد من الناحية الذاتية أي موضوع ومنها ما يكون السعي فقط الى المص كهدف للذة ومرحلة تناقض العاطفة التي تظهر عقب بزوغ الاسنان وتستهدف العض على الموضوعات وغالباً ما يكشف تحليل المنحرفين

الساديين عن ان اعراضهم تتأصل بذورها في الهدف الجنسي الفمي «اظهار العض» وبالنظر في أهمية مفهومي التثبيت والنكوص في نشوء الاعصبة يتضح أن الارتقاء في النمو النفسي الى مستوى أعلى لا يتحقق أبداً بشكل تام بل إن خصائص المستوى الابكر تظل باقية بدرجة ما جنباً الى جنب أو من وراء المستوى الجديد واختلالات النمو تحدث ليس فحسب في صورة توقف كامل للنمو ولكنه في صورة استبقاء خصائص من المراحل السابقة باكثر مما هو عادي.

فإذا ما اضطلع النمو الجديد بصعوبات فمن الممكن أن تحدث حركات إرتدادية يتراجع فيها النمو الى مراحل ابكر عاشها الشخص على نحو أنجح والتثبيت والنكوص يتمم احدهم الاخر ولقد استخدم فرويد هذا التشبيه بجيش يتقدم في ارض العدو تاركاً ورائه قوات الاحتلال في كل المراكز الهامة وبقدر ما تزداد قوات الاحتلال التي يتركها ورائه يضعف الجيش المتقدم فلو التقى هذا الجيش المتقدم بقوة معادية تتفوق عليه بكثير فانه يمكن ان يتراجع الى المركز التي ترك عنده من قبل اكبر قوات احتلاله وكلما اشتد التثبيت ازداد احتمال النكوص امام الصعوبات والذي يساعد على حديث التثبيت هو وجود استعدادات وراثية هي المسؤولة عن مختلف المناطق الشبقية والتي تكون معبئة بكميات مختلفة من الطاقة او منطوية على درجات مختلفة من القدرة على الافراغ.

المرحلة الأستية السادية:

إن تحليل الاعصبة القهرية قد مكن فرويد من أن يزج بين مرحلتين الفمية والذكرية بمستوى آخر لانتظام الليبيدو هو المستوى الاستي السادي ولا شك في أن اللذة الاستية موجودة منذ بداية الحياة ومع ذلك ففي العام الثاني من العمر يبدو أن المنطقة الشبقية الاستية تصبح الادارة الجديدة الرئيسية لجميع الاثارات والهدف الأول الشبقية الاستية هو بالتأكيد الاستمتاع بالاحاسيس اللاذة في عملية التبرز وبعد ذلك يتعلم الكائن بفضل الخبرة اثارة الاغشية المخاطية في المستقيم يمكن الزيادة منها باحتجاز العامود البرازي إن ميول الاحتجاز الاستي لهي مثلاً واضح على

الائتلاف بين اللذة الشبقية وتحقيق الأمن ضد القلق إن الاصل هو طابع الارتباط بين الحوافز الاستية والسادية مما يعبر عنه المصطلح الخاص بهذا المستوى من انتظام الليبيدو والاستية السادية لهو شبيه الارتباط بالذي يحدث ما بين الفمية والسادية وهذا الارتباط بالسادية يرجع جزئياً الى تأثرات احباطية وجزئياً الى طابع الاهداف الإدماجية ومع ذلك فثم عاملان ينبغي اضافتهما أولاهما حقيقة أن الاستبعاد هو من الناحية الموضوعية تدميري كالادماج فالفعل الاستي السادي الاول هو البراز ذاته و«ضغطه الى الخارج» ويدرك على انه ضرب من الفعل السادي وفيما بعد تتم معاملة الاشخاص على نحو ما عوملت المواد البرازية من قبل اما العامل الثاني فهو «القوة الاجتماعية» المتضمنة السيطرة على العضلات العاصرة ففي التدريب على النظافة يجد الطفل فرصة فعاله للتعبير عن معارضته للكبار وهناك اسباب فسيولوجية لارتباط الشبقية الأستية بتناقض العاطفة والجنسية الثانية فالشبقية الأستية يعامل البراز بطريقة متناقضة فهو يطرد المادة البرازية من البدن ويحتجزها كما لو كانت موضوعاً محبوباً ذلك هو الاصل الفسيولوجي «للتناقض العاطفي الأستي».

ومن ناحية اخرى فإن المستقيم هو عضو اخراج أجوف فبوصفه عضو اخراج بوسعه ايجابياً ان يطرد شيئاً وبوصفه عضو اجوف بوسعه أن يستثار بدخول جسم غريب فالميول المذكرة مشتقة من الوظيفة الاولى بينما الميول المؤنثة مشتقة من الوظيفة الثانية وهذا هو الاصل الفسيولوجي لارتباط ما بين الشبقية الأستية والجنسية الثنائية..

ان النزاعات الأستية الأولى هي بالطبع شبقية ذاتية فالاستبعاد اللاذ شأنه شأن الاحتجاز اللاذ فيما بعد يمكن تحقيقها دون أي موضوع وثم لذات استية معينة يستشعرها الطفل في البداية في صورة احاسيس تصاحب عناية الأم عند تغيير اللفافات فهذه العناية بالاضافة الى الصراعات التي تستثار فيما بعد حول تدريب الطفل على النظافة من شأنها ان تحيل بالتدريج الحفزات الاستية الشبقية الذاتية الى حفزات موضوعاتية وكل هذه الحفزات تتسم في وجهتها بتناقض العاطفة فمن

الممكن ان تعبر عن الحنان في صورة اولية كما يمكن أن تعبر بعد إدانة الموضوعات عن العدائية والاحتكار وكما ان الاحباطات في المرحلة الفمية تؤدي من خلال اساءة الفهم الارواحية الى نشوء قلق فمية نوعية فكذلك الاحباطات في المرحلة الأستية تؤدي الى نشوء ظروف قلق استية نوعية ومن قبيل الثأر من النزاعات الاستية السادية تنشأ مخاوف من ما يريد الشخص ان يقترفه استيا في الاخرين سوف يحدث الان له فتنشأ مخاوف من الانجراح البدني الاستي الطابع. من قبيل الخوف من معاناة شق عنيف تنتزع منه المواد البرازية او محتويات البدن.

اما المناطق الشبقية الاخرى والحوافز الجزئية فمغلقة بعض الشيء في مؤلفات التحليل النفسي وذلك لأنها تصبح مناطق تنفيذية مترعمة ومع ذلك فإن للصرعات المتصلة بها غالباً ما تلعب دوراً في نشأة الاعصبة وتشكيل الشخصية.

الشبقية البولية:

إن ظهور الشبقية البولية عند الطفل هو ظاهرة شديدة التداخل مع الشبقية الانسالية الطفلية بحيث يصعب الافاضة فيها قبل دراسة الانسالية الطفلية ومع ذلك فغالباً ما تبدأ في المراحل اللاحقة خصماً قبل انسالي للجنسية الانسالية الحقة والطفل في الشبقية البولية يصبح بضرورة واعية بالاختلاف بين الجنسين بالرجوع الى عملية التبول ومن ثم فإن الشبقية البولية كثيراً ما تبدو مؤتلفة مع عقدة الخصاء والهدف الاول للشبقية البولية هو بالتأكيد لذة التبول ومع ذلك فهناك ايضاً لذة ثانوية احتجازية بولية «شبيهة بلذة الاحتجاز الاستي» كما إن هناك صرعات تدور حولها وهذه اللذة الاحتجازية اكثر شيوعاً عند البنات ربما لأسباب تشريحية.

إن الاهداف الاصلية للشبقية البولية هي بالتأكيد شبقية ذاتية تماماً كالاهداف الاصلية للشبقية الاستية والشبقية البولية يمكن أن تتجه هي الاخرى بعد ذلك الى الموضوعات عندئذ يصبح الجهاز البولي الأداة التنفيذية لآخايل جنسية مثيرة تدور

حول تبول الطفل على الموضوعات او تبول الموضوعات علية او بأخايل تكون صلتها بالتبول اكثر تنكراً إن الاطفال غالباً ما يبللون بطريقة ايجابية سراويلهم أو فراشهم طلباً للذة الشبقية الذاتية وفيما بعد يمكن ان يظهر البوال عرضاً عصابياً لا إرادياً مكافئاً لا شعورياً للاستنماء ولذة التبول لها بصورة عامة طابع مزدوج فمن الممكن أن تتخذ عن الجنسين على السواء دلالة ذكرية بل وسادية وعندئذ يكون التبول مكافأً للاختراق الايجابي تصحبه اخاييل إتلاف او تدمير او من الممكن ان يعايش استسلاما «للانسياب» استسلاماً سلبياً وتخلياً عن الضبط وبالنظر الى أن لذة احتجاز البول اقل وضوحاً من لذة احتجاز البراز اختفت تماماً عند الصبيان فان الصراعات في مجال الشبقية البولية لا تتمثل في صراع بين حفزات الاستبعاد وحفزات الاحتجاز بقدر ما تتمثل في غرابة الاستمتاع باللذة الشبقية الأولية عبر التبول والزهو النرجسي بضبط العضلة العاصرة للمثانة وهذا الزهو يرجى الى أن الفشل في النظافة البولية عقوبتها تتعادى اغراق الطفل في الخزي بأكثر مما يحدث عند الفشل في النظافة الاستية وان الخزي هو القوى النوعية ضد غوايات الشبقية البولية والطموح الذي غالباً ما يوصف على أنه نتاج صرعات الشبقية البولية انما يمثل النضال ضد الخزي وفي هذا فإن الخزي والاشمئزاز يعتبران كباعثين للدفاع.

مناطق شبقية اخرى:

إن سطح الجلد برمته وكذلك الاغشية المخاطية كلها تعمل كمناطق شبقية فكل استثارات الجلد من احاسيس اللمس او حرارة او ألم هي منابع ممكنة للاثارة الشبقية هذه التي إذا اصطدمت بقوة باطنية مضادة تتمخض عن صراعات والشبقية الحرارية بصفة خاصة غالباً ما تأتلف مع الشبقية الباكرة فتشكل جانباً اساسياً من الجنسية الاستقبالية الاولية فالتلامس الجلدي مع الرفيق واستشعار دفيء البدن يظل عنصراً اساسياً في كل علاقات الحب والشبقية اللمسية شبيهة بالنظارية «السكو بتو

فيليل» فكلاهما يمثل اثارة تحدثها مثيرات حسيّة نوعية فبعد اكتمال الزعامة الانسالية تعمل هذه الاثارات «كمستنهضات للهياج كما تلعب دوراً مماثلاً في اللذة التمهيدية أما إذا تعرضا للانطراد في الطفولة فانهما تضلان معزولتين تتطلبان لحسابهما الخاص اشباعاً كاملاً مما يخل بالتكامل الجنسي ومع ذلك فالشبقية اللمسية لا ترتبط بالضرورة بالنظاراتية واللذة الناتجة من الاثارات الجلدية الاليمة هي الدعامة الشبقية لكل اشكال المازوجشية وحيث تتوقف اهداف الشبقية الجلدية عن ان تكون شبقية ذاتية متجهة الى الموضوعات فإن الهدف الأول الادماجي يغدو هدفاً بارزاً.

فالاستدخال عبر الجلد يلعب دوراً هاماً في التفكير السحري في كل العصور وكذلك الاخاييل الجنسية اللاشعورية للعصابيين...

إن الشبقية الجلدية لا يسهل دائماً تميزها عن الشبقية العضلية او عن المعطيات المشبقة للاحساسية، فالشبقية العضلية تتبدى في عديد من العاب التسلية وفي المجال البويلوجي في العديد من اعراض التبدين أو في كفوف الانشطة عطليه «مشبقة» واللذة الجنسية الناتجة من احاسيس الحساسية العميقة في الحالات العصابية لهي أعظم اهمية بكثير مما يعتقد في العادة أما عن أهمية اللذات والمخاوف التي تدور حول احاسيس حس الحركة وحس الاتزان وهي تتمثل في المستويات الاولية للانا وحيث أن الهياج والصراع الناتج عن هذه الاحاسيس يشكل عنصراً اساسياً للجنسية الطفلية فان هذه الاحاسيس ذاتها يمكن أن تصلح فيما بعد معالم الجنسية الطفلية بوجه عام وربما يرجى الارتباط بين القلق واحاسيس الاتزان الى اصل فسيولوجي عميق ولقد أكد كثير من الباحثين إن الخوف عند الطفل الصغير من فقدان اتزانه يمكن ان يكون النموذج الأول لضروب القلق الاخرى[١].

---

(١) نظرية التحليل النفسي في العصاب ـ الكتاب الأول ترجمة د. صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق ـ مكتبة الانجلو المصرية ص ١٨١، ٢٨٢.

الجهاز النفسي الثلاثي:

المثلث الديناميكي للجهاز النفسي:

إن الشيء الذي كان فرويد يعمل على تحقيقه عندما كان العقل اللاشعوري هو المفهوم الذي له المكانة الهامة في نظافة النفس هو الكشف عن القوى المؤثرة في الشخصية التي لا يعرفها الملاحظ المباشر ومن أهم ما أضافته نظرية فرويد الى ميدان علم النفس انها وجهت الأنظار الى أهمية الجانب اللاشعوري في حياة الانسان وسلوكه مما اسهم في القضاء على النزعة العقلية البحتة في دراسة علم النفس التي كانت تقوم على تحليل الشعور والحالات الشعورية فقط وقد احدث الكشف عن اللاشعور ثورة في علم النفس من حيث موضوعه ومنهجه وطرق تفسيره.

ولا شك أن فهم الشخصية من حيث تنظيمها وتكاملها يرجع الى مدرسة التحليل النفسي فنظرتها الديناميكية الشخصية باعتبارها ميدان لصراع كثير من الميول والرغبات والانفعالات وهو ميدان يصطرع بدوره مع البيئة الاجتماعية والثقافية.

وقبل البدء في التقسيم الثلاثي نبدأ بالشعور واللاشعور.

إن تقسيم العمليات العقلية الى ما هو شعوري وما هو لا شعوري هو الفرصة الاساسية التي تقوم عليها مدرسة التحليل النفسي حيث أن الخصائص النفسية لا تقف عند الشعور وحده بل تمتد الى ما هو لا شعوري[1].

١ ـ الشعـور:

هو ذلك الجزء من العلميات العقلية التي نحسها وندركها ونعيها وهو حالة وقتية تستمر لفترة وجيزة فالفكرة التي تكون شعورية تستطيع أن تظهر مرة ثانية في الشعور إذا توفرت لها شروط معينة وحين تبتعد عن الشعور لوقت فإنها تكون كافية في جزء معين من العقل وهذا الجزء يسميه فرويد ما قبل الشعور أي اللاشعور

---

(١) الشخصية في ضوء التحليل النفسي الدكتور فيصل عباس، دار المسيرة بيروت ص ٦٢.

الكامن الذي يصبح شعورياً من جديد تحت شروط معينة كما توجد بعض العمليات العقلية التي تستطيع ان تحدث في العقل جميع الاثار التي تحدثها الأفكار العادية بدون أن تكون هي نفسها شعورية وهذه العمليات العقلية التي لا يمكن أن تصبح شعورية تسمى اللاشعور لأن هناك قوة معينة تقاومها لأن تغدو شعورية.

ولا يمكن ازالة القوة المقاومة إلاّ على أساس تحليل نفسي يتم بواسطة جعل الافكار المقاومة شعورية.

إذن يوجد نوعان من اللاشعور: اللاشعور الكامن قبل الشعور والذي يستطيع أن يظهر بسهولة في الشعور إذا توفرت شروط معينة واللاشعور المكبوت الذي يجد مقاومة تمنعه من الظهور في الشعور.

ويشكل الشعور وما قبل الشعور واللاشعور ثلاثة انظمة تشمل جميع جوانب حياة الانسان النفسية[1].

وعلى الرغم من أن تصورات فرويد حول مستويات النفس قد عدلت في جوانبها إلاّ أن التصنيف الاساسي حول مجالي الشعور واللاشعور في جميع نماذج الشخصية قد بقي كما هو «الشخصية الشعورية فهي تمثل العناصر المنسجمة بعضها مع بعض، وأما القوى اللاشعورية فهي النزعات التي لا تنسجم مع الشخصية الشعورية» والتصنيف النهائي للجهاز النفسي عند فرويد يتكون من العناصر الثلاثة الهامة الهو ـ الأنا ـ الأنا الاعلى.

والأجهزة الثلاثة حين تعمل منسجمة متعاونة تسهل للفرد طريقة التفاعل مع ذاته ومع بيئته ويكون الغرض من هذه التفاعلات اشباع ما لدى الانسان من حاجات ورغبات اساسية.

أما اذا كانت هذه الاجهزة غير منسجمة، ومتنافرة فيما بينها، فإنها تؤدي الى صعوبة تكيف الفرد مع ذاته ومع بيئته وتؤدي الى الخلل في شخصيته.

---

(١) الشخصية في ضوء التحليل النفسي الدكتور فيصل عباس، دار المسيرة بيروت ص ٦٦.

١ ـ الهــــو:

هو ذلك القسم من النفس الذي يحول كل ما هو موروث وما هو غريزي في الطبيعة الانسانية «الهـو» لا يتبع المنطق ولا الاخلاق ولا يهتم بالواقع، وإنما يهتم فقط باشباع الدوافع الغريزية تبعاً لمقتضيات مبدأ اللذة وكل شيء في الهـو غامض ومبهم ولا شعوري حيث إن الهـو تحتوي على مجموعة من القوى او النزعات بصورة غير خلقية وغير منطقية وغير شعورية وغير منتظمة وهو يندفع لقوة لتحقيق واشباع اللذة وهذه الدوافع هي في مجملها فطرية يحاول الانسان تحقيقها مع تجنب الالم الناجم عن تحقيقها.

الهـو يعتبر مصدراً للطاقة النفسية، ولهذا فهو ملتصق بالبدن وبعملياته اكثر منه بالعالم الخارجي، وطاقة الهـو غير ثابتة بحيث يمكن تحويلها من موضوع الى اخر، والهو لا يتغير بفعل الزمن او بفعل الخبرة، لأنه غير متصل بالعالم الخارجي، ومع ذلك يمكن السيطرة عليه وتنظيمه وفقاً للوقائع، ويوجد طريقتين لتلبية رغبات الهو إما بكبتها عن طريق الأنا وفي هذه الحالة تبقى في حالة كمون او التخلص منها عن طريق تلبية الرغبات فعلياً.

ويعتبر الهـو الحقيقة النفسية الواقعية داخل الفرد، لأنه يخول على الخبرات التي تتكرر بشدة في الاحيال المتعاقبة للنوع الانساني بالاضافة الى خبرات الفرد الجديدة التي يكتسبها في حياته اليومية.

فالهـو لا يفكر، وإنما يشتهي ويرغب ويجري وراء تحقيق هدفه، وهو اشباع الحاجات الغريزية بحسب مبدأ اللذة[١].

٢ ـ الأنـــا:

هو مجال الشعور يتكون بالتدرج من اتصال الطفل بالعالم الخارجي الواقعي عن طريق الخبرة، ونمو حواس الطفل واجهزته العصبية وبازدياد خبرة الفرد بالحياة والعالم الخارجي يتبلور شعوره بذاته ويدركها متميزة عن العالم الخارجي، وهذا

(١) المرجع نفسه ص ٦٧.

الشعور بالذات هو بداية تكوين الجهاز الثاني من شخصية الفرد وهو «الأنا» وهو الجزء الشعوري الواعي او الجانب المعقول من شخصية الفرد، وهو الذي يتعامل مع المجتمع والواقع الخارجي مباشرة.

والأنا ينشأ اصلاً من الدوافع الفطرية، وينفصل عنها كنتيجة للخبرة والتدريب والتعلم اثناء مراحل النمو. يلعب في تكوين عوامل اساسية منها الذكاء والتكوين البدني هو درجة الاتزان الانفعالي ودرجة ضغط الدوافع الداخلية وكذلك معرفة الغير وتمثيل الأنا بالاخرين.

كل هذه العوامل تحدد صورة الأنا، وهي الإطار الذي يرى الانسان من خلاله نفسه، ويحدد على اساسه انماط سلوكه ويعتبر الأنا هو الذي يشعر بضغط الدوافع الداخلية ويدرك وجودها وحاجتها للاشباع كما يدرك ظروف البيئة الخارجية ومعايير المجتمع وما تفرضه من اوامر ونواهي للسلوك ذات صلة مباشرة او غير مباشرة بالدوافع الفطرية، ويحد من حرية اشباعها او يتصدى لاحباط نشاطها.

وبتعبير آخر إن الأنا هو ذلك القسم من الهو الذي تغير نتيجة تأثير العالم الخارجي فيه تأثيراً مباشراً بواسطة جهاز الادراك والشعور. والأنا يقوم بنقل تأثير العالم الخارجي الى الهو وما فيه من نزعات، ويحاول أن يضع مبدأ الواقع محل مبدأ اللذة الذي يسيطر على الهو، ويمثل الأنا الحكم وسلامة العقل على خلاف الهو الذي يحوي الانفعالات.

فالأنا يتولى الدفاع عن الشخصية وتوافقها مع البيئة، وحل الصراع بين الانسان والواقع أو بين النزعات المتعارضة للانسان بطرق عديدة ولذلك فهو أداة التكيف بين الدوافع الداخلية ومتطلبات الواقع الخارجي..

ويمكن القول أن الأنا عبارة عن نظام معقد من العمليات النفسية التي تكون بمثابة الوسيط بين الهو والعالم الخارجي.

٣ ـ الأنا الأعلى:

الأنا الأعلى هو الجهاز الثالث من أجهزة الشخصية، ويتكون الجهاز منذ الطفولة، وهو يمثل الجانب الخلقي من الشخصية. كما أنه يمثل الجانب المثالي بعكس الأنا الذي يلتزم بالواقع، وبعكس الهو الذي لا هدف له سوى الحصول على اللذة..

والأنا الأعلى ينمو عن الأنا عن طريق امتصاص الطفل للمعايير الخلقية التي يضعها الوالدين فتكون هذه المعايير بغية ارضاء والديه وتجنبه العقاب، وبمعنى ينبغي على الطفل أن يسلك السلوك الذي يساير المعايير الخلقية التي يسلك على اساسها والديه.

والأنا الأعلى هنا يقوم بتنظيم الصلة بين الغرائز من ناحية، والأنا من ناحية أخرى.

ويتكون الأنا الأعلى من جانبين الضمير / وهو يحتوى على كل شيء عوقب من أجله الطفل، والأنا المثالية التي تحتوي على اثابة من الوالدين للطفل، فالضمير يقاوم كل من الهو والأنا معاً، فهو يسمح للهو في أن تحقق عمله ورغباته، ولهذا فهو يحاول أن يعطل مبدأ اللذة كما أنه يسيطر على الأنا ويوجه له اللوم والشعور بالذنب إن صدر من الأنا عملاً لا يروقه، والأنا المثالية تسعى الى الكمال وتعمل كل جهدها في تكوين مثل عليا تكون انعكاساً للقيم الخلقية السامية للوالدين[1].

وتمثل الأنا المثالية موضوعات ذات صبغة كمالية دائمة.

والأنا يشعر بالفخر عن طريق التوحد مع موضوعات الاختبار الخلقي المتمثل بالأنا الأعلى وهذا الأساس بالفخر هو الثواب الذي تخلقه الأنا الأعلى على الأنا لكونه خيراً.

تلك هي الاجهزة النفسية التي تتكون منها الشخصية والتي لا بد أن تعمل جميعها في انسجام لتحقيق اكبر قدر ممكن من التوازن والاستقرار النفسي للفرد. فاذا برزت نزوة غريزة في الهو فإنها تتجه الى الأنا لمحاولة اشباعها غير إن الأنا الواقعية تتمهل لترى أن كان من الموافق تحقيق هذا الدافع فتشبعه إذا كانت الظروف الخارجية لا تتعارض مع هذا الاشباع أو تكبته وتمنعه من التعبير اذا كان الموقف الخارجي لا يسمح بذلك.

وفي نفس الوقت يكون الأنا الأعلى متيقظاً أو يتدخل إذا كان في الدافع شيء يتعارض من الاتجاهات التي استقرت فيه فيضغط على الأنا لصد الرغبة وكبتها ومن هنا يخضع الأنا لقوى ثلاث هي:

١ ـ الدوافع والحاجات والرغبات التي تكمن في الهو وما يتطلبه من اشباع دون اعتبار لمبدأ الواقع.

---

(١) فرويد «الذات والغرائز» ص ٧٢.

٢ ـ عالم الواقع بما يتضمنه من اوضاع اجتماعية وحضارية سائرة وما تفرضه السلطات من نواهي تعترض سبيل الدوافع الفطرية التي لا تتفق معها.

٣ ـ الأنا الأعلى وما يفرضه من صد وتحريم من اشباع هذه الدوافع وتمسك بالقيم الاخلاقية التي امتصها الفرد خلال حياته(١).

ديناميكية الشخصية وفق التقسيم الثلاثي:

من خلال التفصيل الذي لاحظناه بالتقسيم الثلاثي اتضح أن الشخصية تنطوي على ثلاث جوانب.

١ ـ جانب بيولوجي (يمثله الهو).

٢ ـ جانب سيكولوجي (يمثله الأنا وهو مركز العمليات العقلية العليا والشعور).

٣ ـ جانب اجتماعي اخلاقي (يمثله الأنا الأعلى).

وهذه الجوانب الثلاثة ليست مستقلة، بل هي في صراع دائم متبادل، فوظيفة الأنا هي التوفيق بين مطالب اللهو ومطالب الواقع الخارجي ومطالب الضمير الاخلاقي. فالأنا هو المركز الذي تتجاذبه القوى الثلاثة، وعليه أن يوفق بينهما جميعاً، فإن نجح في مهمته التوفيقية أدى ذلك الى سير الحياة النفسية بشكل سوي واتجهت الشخصية للتكامل والاتزان، وإن فشل الأنا في مهمته لتفوق احدى القوى الثلاث أدى ذلك الى اختلال التوازن النفسي، وكانت النتيجة سوء التوافق والانحراف.

فالشخصية هي عبارة عن ميدان لصراع كثير من القوى والدوافع، وهذا الميدان يتفاعل بدوره مع ميدان البيئة الخارجية (الاجتماعية ـ الثقافية ـ الحضارية) ولفهم ديناميكية الشخصية في مختلف جوانبها لا بد من توضيح الدوافع الداخلية التي تحرك جميع العمليات النفسية وتحدد بيئة الشخصية وكيف تعمل الاجهزة النفسية الثلاث وكيف يتفاعل بعضها مع بعض أو مع البيئة.

---

(١) فرويد النظرية العامة للأمراض العصابية ـ ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت ص ٧٠.

الفصل الثالث

ميكانيزمات الدفاع



ميكانيزمات الدفاع:

قام عالم ومؤسس التحليل النفسي ورائد مدرستها العالم فرويد بتقسيم الشخصية وتشريحها الى ثلاثة اقسام واعتمد في هذا التقسيم على بعض ملاحظاته الايحائية التي رأى فيها أن الفرد كائن مقسم الى مستويات ثلاثة الهو ـ الأنا ـ الأنا الأعلى. وبهذا ينهض التحليل النفسي على مسلمة اساسية يقع على عاتق الفلسفة مناقشتها وإن تكن نتائجها تبرر قيمتها فيما يسمى بالنفسية ويعرف عنه بشيئين:

أولاً: العضو البدني لهذه التقسيمة مصرح عملها أي المخ (الجهاز العصبي).

ثانياً: أفعالنا الشعورية التي لنا بها معرفة مباشرة، والتي ليس لها أي وصف يزيدنا بها علماً، وما يقع بين هذين القطبين فيبقى لنا مجهولاً، وهذا التصور واستكماله حدث علمي جديد. فإن التطور الذي تم في دراسة تطور الانسان هي التي اتاحت لنا أن نعرف هذا الجهاز النفسي المقسم على النحو التالي:

١ ـ **الهـو** ـ هو الجزء الغامض المتعذر بلوغه وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمبدأ اللذة وتعتبر الطبقة السفلى والتكوينات التحتية للنفس وهي الميول البيولوجية كالغرائز والرغبات ويوجد في الهو براكين من الغرائز الحيوانية لا حصر لها وهي قوة خام وهي تتحرك بهدف الاشباع الغريزي.

ـ الهو تعمل على مبدأ تحقيق اللذة فقط.

ـ الهو ليس لها قواعد اجتماعية ولا اخلاقية ولا زمان محدد. (هو حيوان يعرف اللذة فقط).

٢ ـ **الأنـا** ـ هو ذلك الوجه الواعي من النفسية الذي يتميز به الفرد بالشخصية الاجتماعية.

ـ هو جهاز ضبط وتحكم مما يؤدي الى ترجمة طاقات الهو ويشكلها وينظمها بما يتلائم الواقع (مثال):

الجنس - زواج بعقد شرعي بين راشدين وشهود من المجتمع بطريقة ترضي الجميع وتتناسب مع الاعراف والتقاليد الاجتماعية السائدة في المجتمع.

- اذن الأنا هو كائن يخرج من رحم الهو، وفي الأصل كان جزء منه، وهو كذلك في الأصل. هو خادم مطيع لرغبات ومتطلبات الهو، لكن بطريقة ملائمة ومناسبة جداً، بمعنى (امرك يا سيدي ولكن حسب الاصول) ويسمى مبدأ انتقال اللذة وتحويلها الى الطريق الطويل والأصعب ولكنه في النهاية اضمن بكثير من الطريق السهل الذي سوف ينجم عنه خسائر لا تحمد عقباها.

— ومن وظائف الأنا هو الارجاء والقدرة على تحمل الحصر ويحدث هذا كثيراً في الرغبات الجنسية.

٣ ـ الأنـا الأعلـى:

سماها فرويد (الضمير اللاشعوري) وهو جهاز الرقابة والمحاسبة وهو يقف للأنا بالمرصاد وهو يمثل مجموعة من القيم الداخلية. وفي هذا قال فرويد إن الأنا خاضع لسيدين قساة القلب هما الهو - الأنا الأعلى.

وفي هذا قال الله عز وجل في سورة الشمس ﴿**ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها * وقد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها**﴾ آية ٧ - ١٠.

وسورة القيامة ﴿**لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة**﴾ آية ١ - ٢.

الأنا الأعلى هو الحل الصحي، الحضاري، الثقافي، والشرعي للوضع الطبيعي، وهذا ما ينطبق حول مفهوم الصحة النفسية، والذي هو تحقيق التوازن بين مقتضيات الواقع والشهوات.

— والأنا الأعلى هي المسؤولة عن المرض النفسي أحياناً، وخاصة عندما تفشل في ارضاء كل من الهو والأنا.

ومع تطور الاشياء والانسان المستمر، يحدث بالتالي تطور الجهازين النفسية (الأنا - الأنا الأعلى) وأضاف المحللون تطوراً آخر هو (الأنا المثلى) التي تضم المثل العليا والأهداف السامية، وتحقيق أهداف الأنا يعني تحقيق ارضاء النفس.

في هذا قال فرويد كلمته المشهورة (قال: إن الإنسان ليس بكتوم للسر إذا صمت لسانه ثرثر باطراف أصابعه).

يمكن تقسيم دفاعات الأنا الى (أ) دفاعات ناجحة تؤدي الى انهاء الحفزات المطرودة. (ب) دفاعات فاشلة تستلزم تكراراً او فرملة عملية الطرد للحيلولة دون طفح الحفزات المطرودة.

وتنتمي الدفاعات المولدة للمرض والتي هي اساس الاعصبة الى الفئة الثانية والحفزات المكبوتة حيث لا تجد الافراغ فتظل معلقة في اللاشعور وتتزايد قوتها بالنشاط المتصل لمنابعها الفيزيائية وينتج عنها حالة توتر، فمن الممكن أن يحدث طفح.

١ ـ الاعــلاء أو التسامي:

إن الدفاعات الناجمة يمكن وضعها جميعاً تحت عنوان الأعلاء، وهذا المصطلح لا يشير الى ميكانيزم نوعي. فمن الممكن في الدفاعات الناجمة استخدام ميكانيزمات متنوعة من قبيل التحول من السلبية الى الايجابية وقلب الموضوع وقلب الهدف الى ضده ففي الاعلاء تتلاشى الحفزة الاصلية لأن طاقاتها تنسحب لصالح طاقة بديلة، وإن طلائع الاعلاءات يمكن ملاحظتها في بعض ألعاب الاطفال، حيث تشبع الحفزات الجنسية بطريقة مجردة من الجنسية بعد شيء من التحريف في الهدف أو الموضوع، وكذلك التطابقات فهي بارزة في مثل هذا النوع من الالعاب.

والشخص الذي تحقق عنده فكرة الاعلاء يفعل بالدقة ما تقتضيه الغريزة أن يفعله.

٢ ـ الاغمــــاء:

هو ميكانيزم دفاعي، ومن حيث هو ايقاف للوظائف المنطوية على التهديد نتاجاً متطوراً لمنعكس بيولوجي متأصل بسبب التخلي ليس فحسب عن الوظائف المنطوية على التهديد بل ايضاً عن الاعضاء المنطوية على التهديد «الاستئصال الذاتي» هذا المنعكس بما يستهدفه من تخلص من العضو المتوتر لصالح اتزان الوظائف العضوية ويمكن اعتباره الاصل المشترك لكل من ارضاء الغرائز والدفاع ضد الغرائز.

٣ ـ الانكــــــار:

إن الميل الى انكار الوقائع والاحاسيس الاليمة لقديم قدم الشعور بالألم ذاته، وإن انكار الوقائع الأليمة عند صغار الاطفال بما يرضي رغباتهم أمر جد مألوف، وهو تعبير مباشر عن فاعلية مبدأ اللذة... إن القدرة على انكار الجوانب المكررة من الواقع هي المقابل للاشباع الهلوسي للرغبة وكل محاولات للانكار في المراحل اللاحقة للنمو تجد بالطبع خصوصاً لها في وظائف الأنا.

للادراك والذاكرة فالخبرات الأليمة وذكريات الخبرات الأليمة التي تنبعث من جديد بصورة أليمة كلما كان شيء يشبه الخبرة الأليمة الأصلية ترغم الكائن العضوي على التخلي عن اساليب الاشباع الهلوسي للرغبة وعن الانكار الساذج.

وان الصراع بين الانكار والذاكرة احياناً ما يمكن ملاحظته مباشرة فواقعة كدرة يمكن بالتناوب اقرارها وانكارها فاذا أمكن في هذا الموقف توفر نوع من الموضوع البديل للادراك او الذاكرة موضوع وإن ارتبط بالواقعة المستهجنة إلا أنه ليس كدراً فإن هذا البديل يمكن تقبله وينفض الصراع لصالح الكبت.

وأحياناً ما يمكن تفسير بعض انماط السلوك اتجاه اشخاص آخرين على أنها محاولات لتسهيل انكارات لوقائع كدرة.

٤ ـ الكـــــذب:

إن الهدف الواضح من الكذب هو حمل الاشخاص الاخرين على تصديق شيء غير حقيقي أو عدم تصديق شيء حقيقي وهدف الكذب المألوف يمكن أن يكون لا شعورياً هو احداث نفسي الأمر عند الكاذب نفسه فمحاولة إقناع شخص اخر بتصديق شيء غير حقيقي تقوم دليلاً على امكانية أن تكون بعض معطيات الذاكرة هي الاخرى كاذبة[1].

فالشخص المخدوع بالكذب يقوم بدور الشاهد في الجدل الناشب بين ذاكرة الشخص وميله الى الانكار.

---

(١) نظرية التحليل النفسي في العصاب/ ترجمة د. صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٦٩ ص ٧٦، ٧٧.

٥ ـ الاسقـــاط:

يعرف «افرانك» هو أول من استخدم مصطلح الاسلوب الاسقاط في مقال سنة ١٩٣٩، بأنه ذلك الاسلوب الذي يعتمد على موقف يقدم فيه السيكولوجي للمفحوص مثيراً أو منبهاً صممه السيكولوجي بحيث يوحي بمعانٍ تختلف عن المعنى الذي صمم الموقف تبعاً له، وهذه المعاني الذي يذكرها المفحوص تعكس بعض جوانب شخصيته وبنائها ودوافعه وصراعاته ومشاعره وقيمه.

- الاسقاط أن ينسب الشخص رغباته الى الاخرين، وفي هذا ينطبق المثل العربي الدارج والمعروف (كل اناء ينضح بما فيه).
- الاسقاط شديد الشيوع عند المرضى الذهانيين، وكذلك في جنون العظمة والاضطهاد (بارانويا).
- دنو الاسقاط الى الغيرة والاضطهادية، ويعتبر اسقاط مركب او معقد، وفيه نتناول الاشياء من خلال رغباتنا ومخاوفنا وانشغالنا. فالاختبار الاسقاطي هو الأداة الذي يزود الفرد بموقف مثير ويتيح الفرصة له لكي يخلع عليه حاجاته الخاصة ودوافعه المكبوته وادراكاته وتفسيراته وتهدف الاشكال العديدة للطرق الاسقاطية الى اثارة استجابات تكشف عن تكوين شخصية الفرد وعن مشاعره ودوافعه وعقده النفسية وطرق توافقه.
- الاسقاط عند فرويد.. هو حيلة دفاعية يعزو بها الفرد دوافعه واحساساته ومشاعره الى الاخرين أو الى العالم الخارجي ويعتبر هذا بمثابة عملية دفاعية تتخلص بها الانا من الظواهر النفسية غير المرغوب فيها والتي سببت لها الالام.
- الاسقاط عند فرانك.. تختلف الطرق المستخدمة في الاختبار الاسقاطي تبعاً للمثير من حيث درجة التشكيل والانتظام أو تبعاً للاستجابة من حيث الصياغة.

ومن حيث وصف فرانك للاساليب الاسقاطية فلقد قسم الاختبارات الى خمسة انواع.

أ ـ **الطرق التكوينية** / وفيها نطلب من الفرد أن يفرض شيئاً من التنظيم البنيوي على المادة المعروضة عليه غير المنظمة واختيار روشاخ مثال لهذا النوع.

ب ـ **الطرق البنائية** / وفيها يطلب من الفرد أن يرتب مادة متكونة ذات معنى خاص في صيغ أعم، ومثال ذلك «كووينفلد» حيث يطلب من الفرد أن يرتب الاجزاء المختلفة الالوان والاشكال في صورة نماذج.

ج ـ **الطرق التأويلية** / وهي تتطلب من الفرد أن يستخلص تأويلاً لشيء مؤلف، أي نقدم للفرد موقفاً يستجيب إليه عن طريق الموضوع، مثلاً: نطلب من الفرد بعد أن نريه الصورة أن يبتدع حكاية او قصة مثيرة عن المنظر المرسوم.

د ـ **الطرق النفسية او التفريغية** / لا تقتصر هذه الطرق على كشف العمليات الذاتية لدى الفرد، بل تعين ايضاً على تخفيف الانفعال، وكثير من انواع اللعب العلاجي للاطفال يشتمل على ناحيتي التخلص من الانفعالات والتعبير عنها.

ه ـ **الطرق الانعكاسية** / التي تلقي فيها طريقة استخدام المادة ضوءاً على الفرد الذي يستخدمها فطريقة استخدام المادة تمدنا بوسيلة للكشف عن شخصية الفرد وهذه الطرق تنطبق على تحليل خصائصي الاسلوب في النشاط العادي كما هو الشأن بالنسبة الى الكتابة باليد او الكلام.

٦ـ **الاستدخال** / هي بمعنى بلع شيء وهي نموذج أولي للاشباع الغريزي ضد الغرائز وفي مرحلة انا اللذة الخالصة كل شيء سار يستدخل وكل الاهداف الجنسية في نهاية الامر مشتقات لاهداف الادماج والاستدخال في نفس الوقت هو نموذج أولي لاستعادة القدرة المطلقة التي سبق اسقاطها على الراشدين.

٧ ـ **الكبت** / وينحصر الكبت في ميل اللاشعور الى أن ينسى الشخص او الى ان لا يصبح واعياً بحفزات داخلية او باحداث خارجية تمثل دائماً غوايا او عقوبات ممكنة تتصل بمطالب غريزية مستهجنة او تشير مجرد اشارة الى تلك المطالب وابعادها الى اللاشعور بالكبت ما هو الا الغاء ومنع تأثير هذه المطالب على مستوى الواقع كما يهدف الى منع الآلام الناجمة عن الشعور بها.

واحياناً ما يتم تذكر بعض الوقائع كمجرد وقائع بينما سياقها ودلالاتها ولونها الانفعالي يكون مكبوتاً.

وتبرز الصراعات عندما تحدث تجارب جديدة يكون لها ارتباط بما سبق كبته عندئذ يغلب على المكبوت الى ازاحة طاقة عليها وهذا الميل الى استخدام مثل هذه الازاحة كوسيلة لاحراز افراغ ينجح احياناً..

فالكبت واحلام اليقظة يمكن أن يستمتع بها الشخص بدرجة انفعالية عالية وذلك الى حد بعينه ولكنها تنسى كلية وفي التو إذا ما تخطت هذا الحد المعين ويصدق هذا على الأحلام حيث تجد أيضاً مجرد خطوة بين الاحلام الانفعالية العارمة التي تعرض نفسها بشكل قهري على الشعور ويبين الأحلام المنسية كلية[1].

وهناك صلات متعددة بين الكبت والاسقاط وأيضاً بين الكبت والاستدخال فالأفكار المكبوتة أحياناً ما تبدو لا شعورياً موضوعات استبعدت من الأنا، وهذا يقرب الكبت من الاسقاط، وأحياناً اخرى تبدو الافكار المكبوتة وكأنها قد تم ابتلاعها وهذا وجه الشبه مع الاستدخال فإن تم ابتلاعه فإن هذا يدخل ضمن نطاق الاختفاء عن الانظار، ولكنه مع ذلك ما يزال فاعلاً من الداخل والاحلام التي تقع خلال فترة التحليل غالباً ما تكشف عن أن المادة المكبوتة تعتبر لا شعورياً طعاماً مبتلعاً او حتى برازاً او قيئاً.

وعلى ما تقدم نصل الى أن الكبت بصوره المختلفة له موضوع هام في التحليل النفسي وسنحاول ايجازه بالآتي:

«هو مصطلح في التحليل النفسي له معنى محدد، وهو منع ظهور الرغبات والغرائز والمشاعر تحت بند «كبت الوجدانيات».

وهناك نوع من الكبت يسمى القمع والضبط، أي منع شعوري إرادي متمثلاً (الحلم سيد الاخلاق) أي يضبط الانسان رغباته وغرائزه وافكاره وهي عملية شعورية ضابطة يتم تفريغها في الاحلام. ونعود اطفالنا منذ نعومة اظافرهم على هذا المنطق تحت قانون العيب.

ـ الكبت هو سحب شحنات الانفعال الناتج عن الرغبات والافكار والغرائز من الخارج أي (الواقع) الى الداخل (النفس) ويتضح ذلك عندما يتم الانفصال بين

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٩.

الجنسين في فترة المراهقة وهنا يتضح هذا الكبت متمثلاً بالانفصال الدفاعي التلقائي وإن الدفاع هنا يتناسب تناسباً طردياً مع وجود خطر عليه من خلال الرغبة الموجهة ضده، وإذا أردنا أن نعرف الكبت بالتعريف المناسب علينا أن نفرق ما بين الحب والاشتهاء والخوف والقلق.

ويمكن ان يتجلى الامر بصورة واضحة في كون الكبت خط دفاع اول وتقوية هذا الدفاع وتدعيمه لأن الكبت عبئه ثقيل من حيث توزيعه للطاقات وبهذا تتدخل العمليات ويتضح ذلك جلياً في الميل للعرض الجنسي عند الفتاة (العري أمام الآخرين والاخفاء) والحل الوسط لهذا الكبت هنا هو الموضة في عملية الاخفاء والاظهار والكشف عنها عن محتويات اللاشعور باساليب متنوعة مثل الصوت ودلالاته والرمز الجنسي الذي يمكن أن تستخدمه الفتاة لتفريغ الشحنات الجنسية التي تكبتها داخلها والدلع أثناء المشي والايماءات اللفظية التي تحمل الطابع الجنسي وتشير اليه.

ومن أجل فهم الكبت علينا فهم الطفولة المبكرة التي تبدأ بالموقف الاوديبي ويقسم الكبت الى قسمين:

أولي / وهو كبت النزعات أو الذكريات الطفلية المبكرة مثل مشاعر الاشتهاء نحو الام وهو كبت أساسي.

ثانوي / وهو امتداد للكبت الأولي، وهو يتجلى بالمثيرات التي نتلقاها من العالم الخارجي ويبين كل ما من شأنه ان يحرك الرغبات والذكريات المكبوتة اولياً.

ومثال ذلك حول معرفة الطفل الاولى حول معرفة الغرائز التي تشكل اساس العقل والذكاء والعلم والمعرفة في الفرد من الشريحة بين الجنسين أي كيف يأتي الطفل الى هذه الدنيا وما مدى الفروق التشريحية بين الجنسين؟ وما هي العلاقة الخاصة بين الوالدين؟ فاذا وقع كبت مبكر حول هذه الغرائز اصبحت كل معرفة كانها ملوثة او مرتبطة بالمعارف الجنسية وبالتالي وجب الامتناع عنها مما يؤدي الى كبت الرغبة في العلم.

وبهذا النوع يحول الامر الى طابع التعالي والتسامي ونحن نحتاج لكي نحسن اداء عملنا ان نجرد المواقف والانشطة من طابعها الغريزي الجنسي او العدواني أي يصبح عليها طابع الحياد مثل الدكتور المتخصص في أمراض النساء والولادة

والتعامل مع الجنسين في مكان عمل واحد مثل الاعمال الادارية في الشركات والجامعات والكليات الجامعية وهنا تتضح أن العلاقة تحولت من طابع الاشتهاء الى طابع الصداقة والزمالة والاخوة.

٨ - التكويـن المضـاد:

«لقد أثبت الكشف في التحليل النفسي بأن هذا الاتجاه المتمثل بالتكوين المضاد ما يزال موجوداً في اللاشعور، وهذه الاتجاهات المضادة الثانوية تسمى تكوينات مضادة. وإن هذا التكوين المضاد والذي يتعتبر إحدى ميكانيزميات الدفاع هو نتيجة لزمت عن كبت مستقر وضمان الاستمرار.

ولكنها تشير الى اسلوب بعينه من الكبت يكون فيه الاستثمار المضاد صريحاً، ومن ثم تنجح في تجنب التكرار المستمر لعمليات الكبت الثانوية».

فالتكوينات المضادة تتجنب المكبوتات الثانوية باحداثها مرة واحدة وبصفة نهائية تغيراً نهائياً في الشخصية فالشخص الذي كانت لديه تكوينات مضادة لا يستحدث ميكانيزميات دفاعية خاصة يستخدمها حين يتهدد خطر غريزي، ذلك أنه قد غير من بناء شخصيته وكان هذا الخطر قائم باستمرار. بحيث يكون على استعداد كلما وقع الخطر.

ومن أمثلة ذلك النظافة والمحافظة على النظام عند الانسان العصابي القهري الذي يناضل عن طريق سماته الشخصية هذه ضد رغباته الغريزية في القذارة وجمود مثل هذه النظافة مثل هذا الحرص على النظام بالاضافة الى الانبثاقات الطارئة للقذارة إنما يفضح الطابع الضدي لسمات الشخصية هذه، بمعنى أن السمات السوية للشخصية تسمح بالافراغ. فان غالبية السمات المرضية تعمل أساساً على أن تظل حبيسة اللاشعور والميول المضادة التي ما تزال موجودة فيه.

وبعض ميكانيزمات الدفاع تمثل أشكالاً وسيطة بين الكبت البسيط والتكوين المضاد. «مثال / فالأم الهستيرية التي تكره لا شعورياً طفلها، يمكن ان تستحدث حباً لطفلها ظاهر الاسراف، وذلك كيما تضمن كبت كبراهيتها له ومن الناحية الوظيفية يمكن تسمية هذا التكوين المضاد ولكنه لا يتضمن تغيراً في الشخصية بشكل كلي».

٩ ـ العـــزل:

وهذا النوع من الميكانيزمات شائع في الاعصبة القهرية وينطوي على دلالة عامة بالنسبة الى علم النفس العلاجي.

وهنا المريض لم ينسى صدماته التي ولدت المرض، ولكنه نسي خيوطها وصلاتها ودلالاتها الانفعالية، فهو يبدي ازاء كل محاولة للكشف عن الوصلات الحقيقية من المقاومة نفس ما يبديه الهستيري ازاء انبعاث ذكرياته المكبوتة، واحياناً ما يقحم المريض فواصل واقعية مكانية او زمانية ما بين الامرين المطلوب الابقاء عليهما منفصلين.

فالفواصل المكانية تصطنع بحيث إن اشياء معينة «تمثل الافكار التي يتحتم الفصل بينها» لا يمكن أن تتلامس أو بحيث يفرض على هذه الاشياء نظام بعينه يقيم فيها مسافة فاصلة.

والفواصل الزمنية تصمم بحيث تأتي في اعقاب كل فعل فترة فاصلة تحول بين الفعل وبين أن يتداخل مع أي فعل آخر.

وحساب مثل هذه الفترات الزمنية احياناً ما يكون واحداً من العوامل التي تدفع العصابي القهري الى العد.

واهم ما يتميز به هذا الميكانيزم الدفاعي **«هو عزل الفكرة عن الطاقة الانفعالية التي كانت في الاصل مرتبطة بها»**.

فالمريض يظل هادئاً وهو يتحدث عن اكثر الاحداث اثارة، ولكنه في نقطة اخرى يمكن ان يستحدث غطاءً انفعالياً لا مبرر له دون أن ينتبه أن الانفعال قد تعرض للازاحة وثمة عزل شائع الحدوث في ثقافتنا هو عزل المكونات الشهوية عن المكونات العاطفية للجنسين.

ومع أن العزل يتحقق في كل حالات العصاب القهري إلا أن هناك اشخاصاً يهيمن عندهم هذا الميكانيزم على اللوحة الى حد يجعلهم مادة تبيانية رائعة لهذا الميكانيزم والحالة التالية توضح ذلك...

شاب في السابعة عشر اصبح عصابياً بسبب صراع عنده يدور حول الاستنماء حيث ظل فترة يستنمي دون أي شعور بالاثم ويل، كثيراً ما كان يرغب زملائه في المدرسة في ممارسة الاستنماء المتبادل، وحدث بعد ذلك أن استمع الى القسيس يلقي موعظة يحذر فيها من الاتصال بأي شخص يستنمي، وبالنظر الى الجنسية الانسالية للمريض، قد عانى الكف في الطفولة بسبب خوف مسرف من الخصاء فقد وجد كلام القسيس طريقه الى اعماقه فصمم على اتباع النصيحة على ان لا يتحدث الى اي احد من الصبيان في هذا الامر، وخصوصاً الذين يمارسون عملية الاستنماء، وخلال فترة من الوقت نجح في تنفيذ تصميمه. وإن هذا التجنب عن الصبيان الذين يمارسون مع الاستنماء طبع بطابع الحصر والقهر واستحدث فوبيات واجراءات قهرية معينة لتضمن له هذا التجنب.

ووصل بهذا الاجراء أن يتجنب الصبي الذي كان يمارس معه هذا الاستنماء وامتد هذا العزل لديه أن يمتنع عن الحلاقة حيث كان والد الصبي حلاق، وكذلك امتد الامر الى ان يعتزل صالونات الحلاقة، وكل من يحاول ان يذهب الى الحلاقين لحلق رؤوسهم وذقونهم. بعد ذلك وجد لزاماً عليه ان يتجنب هذا الحي من المدينة الذي يقع صالون والد الصبي فيها.

ثم تطور العصاب لديه في ان يمنع خالته وجدته واخته وامه من الذهاب الى الحي المجاور للحي الذي يقطن فيه والد الصبي، وبعد خضوع الطفل (الصبي الذي اصابه العصاب) الى التحليل النفسي تبين ان العقدة الاوديبية هي التي كانت مضمون استنمائه، واضطلاع الأنا بذلك المجهود السابق ذكره للدفاع عن نفسها ضد العقدة الاوديبية عن طريق العزل، قد أدى في شهور قليلة الى عصاب قهري بالغ القسوة...

١٠ ـ النكـــوص:

كلما تعرض شخص لاحباط برز لديه حنين الى فترات ماضية من حياته. كانت خبراته فيها أكثر حسرة، والى أنماط ماضية من الاشباع كانت أكثر

اكتمالاً، وشدة هذا الحنين تتزايد بفعل عاملين وثيقي الصلة فيما بينهما: درجة التردد التي بها يتقبل الفرد اساليب جديدة للاشباع، والدرجة التي يكون علها تثنيته على أساليب أسبق من الاشباع.

اذن النكوص هو وسيلة للدفاع، ولكن ينبغي التسليم بالدور الذي تلعبه الأنا في النكوص مختلف عن الدور الذي تلعبه الأنا في جميع الميكانيزميات الدفاعية الاخرى، وان الأنا في النكوص أكثر سلبية، فالنكوص ينتاب الأنا، والنكوص تحركه للعمل بصورة عامة فيما يبدو الغرائز التي قد منعت من الاشباع المباشر فتبحث عن بديل، وهنا يكون الشرط التمهيدي لاستحداث النكوص كميكانيزم دفاعي هو ضعف من نوع خاص في تنظيم الأنا.

ومع ذلك فالاحباطات والاخطار الشديدة والمفاجئة يمكن أن تستثير نكوصات حتى عند افراد ليست لديهم تثبينات قوية.

١١ ـ **التكويـن العكسـي** / هو موقف سلبي وكراهية الى الجنس الآخر، ويتضمن الامر الى قلب الشيء من أصله الى عكسه.

وفي التكوين العكسي يقوم الفرد باعمال كثيرة، يحاول من خلالها الحفاظ على عدم ظهور ما يدور بداخله مثال: (الشاب اتجاه زوجة ابيه الشابة). والعمليات الدفاعية هنا كثيرة أهمها الكبت، ويظهر بمظهر التعالي والتسامي مثل اعلاء السادية والماذوجية واختلاس النظر وان الغرائز عند الأسوياء تخرج بطابع الاعلاء والتسامي..

١٢ ـ **التبـريـر** / يعني ان يلتمس الفرد اسباباً غير الأسباب الحقيقية هو اكثر العمليات الدفاعية انتشاراً وهو يعادل الكذب.

١٣ ـ **النقـل والازاحـة والابـدال** / فالانسان لا يستطيع ان يوجه استجاباته للمصدر الحقيقي المسبب لانفعالاته في كثير من الاحيان فيوجه استجابته الى مصدر بديل ويتضح الامر في شقاوة الاطفال التي هي عدوان منقول.

وكذلك المرضى النفسي في الهستيريا هو ينطوي على نقل.

الصـراع بـين الأنـا العليـا والأنـا:

بعد الاستدخال تنخرط السادية في وصف الأنا العليا، وتهاجم الأنا هذه التي تعدلت بفعل الاستدخال والغضب، بل الشعور بالإثم هو الذي يستشعره المريض.

إن سادية الأنا العليا في الاكتئاب تزيد على السادية التي نجدها في الأنا العليا عند العصابيين القهريين، وذلك بقدر ما يزيد تناقض العاطفة عند المريض الاكتئابي عنه عند العصابي القهري فالأنا العليا تعامل الأنا بنفس الطريقة التي كان المريض يرغب لا شعورياً في أن يعامل بها الموضوع الذي فقده.

وقد فسر فرويد تأنيبات الذات في الاكتئاب على أنها اتهامات موجهة ضد الموضوع المستدخل.

والأنا وهي تلقي الاضطهاد من جانب الأنا العليا الى هذا الحد ليس لها تحت تصرفها من وسيلة غير هذه التي للأنا عند العصابي القهري عندما تكون هذه الأنا في خلاف مع الأنا العليا، فهي تستجيب بالرضوخ كما تستجيب بمحاولات للتمرد. ولكن الأنا عند العصابي القهري لا يمكن أن تنجح بسبب القوة التي اكتسبتها الأنا العليا السادية ومن الواضح أن الأنا في الاكتئابات تكون اكثر عجزاً وأكثر استسلاماً لهجمات الأنا العليا وكل ما هنالك أن الاتجاهات التمردية تعمل بصورة أكثر تخفيفاً.

وتأنيب الذات في الاكتئاب ليس فقط «من جهة نظرر الأنا العليا القائمة بالتأنيب» محاولة لمهاجمة الموضوع المستدخل بل إن تأنيب الذات بالاضافة الى ذلك يمثل «من وجهة نظر الأنا المعاينة للتأنيب «استعطافاً للأنا العليا والتماساً للعفو يستهدف اقناع الأنا العليا بأن اتهاماتها قد نفذت الى القلب...



الفصل الرابع

أ ـ الهفوات

ب ـ الأحلام



«الـهـفـوات»

مقـدمـــــة:

أن الصيرورات النفسية في التحليل النفسي - المثيرة للاستهجان في اغلب الاحيان - هي في جوهرها لا شعورية، وأما الشعورية منها فلا تعدو أن تكون افعالاً منعزلة. حيث أن الشعور هو سمة النفس المميزة وتعريف له. وأن قوام علم النفس هو دراسة مضامين الشعور[1].

ومع ذلك لا يمكن للتحليل النفسي أن يعرف النفس بأنه يتألف من صيرورات تدخل ضمن نطاق الشعور والفكر والارادة ولا مناص له من أن يؤكد أيضاً وجود فكر لا شعوري وارادة لا شعورية.

وعند دراستنا لموضوع الهفوات فإننا نبحث جملة من ظاهرات شائعة متواترة لا تعار اهتماماً كافياً، ولا توجد عند المرضى، فقط بل نلاحظها لدى كل إنسان معافى، إنها الظاهرات التي يطلق عليها اسم «الهفوات»والتي تحدث عندما ينطق المرء أو يكتب عن انتباه أو بدون انتباه كلمة غير تلك التي كان يريد أن ينطق بها أو يكتبها «زلة» أو عندما يقرأ في نص مطبوع أو مخطوط كلمة غير تلك التي مطبوعة أو مسطورة قراءة مغلوطة) او عندما يسمع شيئاً هو غير ما يقال له من دون أن يكون مرد هذا السمع المغلوط الى خلل عضوي في حاسة السمع.

وثمة طائفة أخرى من هذه الظاهرات عينها، أساسها النسيان على أن يكون معلوماً أن هذا النسيان مؤقت لا دائم.

---

(١) مدخل الى التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت ص ٢٠. (فرويد).

كما هو الحال عندما يتعذر على المرء تذكر اسم يعرفه حق المعرفة ولا يلبث أن يهتدي اليه فعلاً في وقت لا حق او عندما ينسى الانسان تنفيذ عزم ثم يتذكره لاحقاً فيكون بذلك قد سها عنه لحين من الزمن ليس إلا.

طائفة من الظاهرات لا تتسم بهذا الطابع المؤقت، كما هو الحال عندما لا يوفق أحدنا في العثور على شيء قد حفظه في مكان ما، ويدخل في هذا الباب شتى الأنواع من فقدان الأشياء.

وهذه ضروب من النسيان نغضب لها ونغتاظ لحدوثها، ولا نملك لها فهماً وجميع هذه الحوادث تتصل فيما بينها بصلة قربى وثيقة تتجلى في ان جميع الالفاظ التي تعتمد في الدلالة عليها «فلتة لسان» «قراءة مغلوطة» «خطأ في السمع» قد تأخذ طابعاً لغوياً باسم «الافعال المحبطة».

وإن هذه الحوادث لا تتصف بطابع الاهمية، ولا تدوم إلاّ لمدة قصيرة في أغلب الاحيان وليس لها دور كبير في حياة الناس ونادراً ما يتسم بعضها بأهمية عملية، كما في حال تصنيع الاشياء ولهذا لا توقظ الاهتمام ولا تثير إلا انفعالاً واهناً.

إن الهفوات تصاحبها طائفة من ظواهر ثانوية صغيرة تعصى على الفهم، ولا تزيدها التفسيرات المعتمدة حتى الآن قابلية للفهم.

فحين نرى الانسان مسترسلاً في حديثه عن شيء ما، ثم يقف فجأة عند ذكر اسم لشيء أو مدينة لها عنصر أساسي أو ثانوي في حديثه فأنه يوقف حديثه كاملاً لكي يتسنى له أن يتذكر هذه الكلمة أو الاسم أو تاريخ الحادثة مع العلم مسبقاً بأنها ليس من ركائز الحديث الاساسية،إلا أنه يقلق ويقف ويدور برأسه وأحياناً يضرب رأسه وكأن الضرب يجعلها تنزل من سلة معلقة بها، ويمكن أن يتدخل المستمعين إذا كان الموضوع يطرح على مسامعهم بالتدخل دعك من هذا وأكمل حديثك فيرد أن الكلمة على طرف لساني والآن سوف أتذكرها.

فإذا ما نطق أحدهم بالكلمة أمامه أو التشبيه بالحروف فعلى عجل يقول تذكرتها، إنها كذا أو كذا.

إن هذا الأمر مع العلم مسبقاً أنه ليس بذي أهمية قصوى لدى الطرف الأول، والذي هو المتحدث، إلا أنه يشعر بالحرج والضيق وتنفرج سرائر وجهه عندما يعثر عليها وكأنها الضالة المنشودة.

ومثل هذه المضاعفات قد تحدث أيضاً كما نعلم في الأخطاء المطبعية التي يمكن اعتبارها هفوات يقع فيها منضد الحروف في المطبعة.

ومثال على هذا الخطأ وقعت فيه صحيفة ديمقراطية، فقد جاء يوماً في تعليق لها على تظاهرة ما «وكان بين الحضور سمو ولي العهر» بدلاً من «ولي العهد» وفي اليوم الثاني بدأت تصحح ما حدث قائلاً «انكم كما تعلمون نقصد «ولي العهر» وهذه المرة بدلاً من «ولي العهد» وهذه المرة يطيب لكثير من الناس أن يتكلم عن هذه الاخطاء المتكررة ضارباً الأمر الى أن هناك أرواح شريرة وراء هذه الاخطاء حيث إن الانسان بطبعه لا يمكن أن يقع في خطأ مرتين ولا سيما إذا كان هذا الخطأ قاتلاً مثل ما حدث.

وما ينطبق على الهفوات ينطبق على فلتات اللسان المتعددة، والتي لا حصر لها ونسوق هذا المثال حتى يتسنى لنا الايضاح قدر الامكان، فقد عهد يوماً الى ممثل ناشيء في عذراء اورليات(*) بابلاغ الملك في موقف جدي من مواقف المسرحية بأن القائد العام يرد اليه سيفه.

والحال أن أحد الممثلين الثانويين اراد أثناء التمرين أن يعاقب الممثل المبتدىء فلقنه العبارة محرفة على النحو التالي: «إن القواد يرد ضيفه» ويبدو أن هذا المزاح الثقيل أصاب هدفه فلقد نطق الممثل التعيس الحظ فعلاً بالعبارة المحرفة كما هي اثناء التمثيل الفعلي، وهذا بالرغم من التحذيرات التي تلقاها بهذا الخصوص، او ربما بسبب هذه التحذيرات بالذات.

وعلينا أن نكون على قدر في تحمل المسؤولية على قول الحقيقة التي تكمن

(*) المرجع السابق ص ٢٧.
مسرحية لشيلر/ استوحاها من حياة جان دارك.

في باطن هذا الأمر والذي ينص على أن التحريف الذي هو قوام الفلتة له في بعض الامثلة التي سقناها مغزى، ولكن ماذا نعني بهذا القول الذي له مغزى. نعني أن مفعول الفلته قد يكون حقيقياً بأن نرى فيه فعلاً نفسياً كاملاً له هدفه الخاص وكظاهرة لها مضمونها ومدلولها الخاص وهذا يؤكد بأن الهفوة قد تكون فعلاً صحيحاً تماماً وكل ما هنالك أنه ناب مناب الفعل المنتظر او المراد.

وعلينا للتأكد من هذا المعنى المراد بالفلتة أن نحيط بالظروف التي حدثت فيها الفلتة بالافتراض بأن لهذه الهفوة معنى.

وبعد ما تقدم نصل(*) الى أن الهفوات وزلات اللسان ليست وليدة الصدفة وانما هي افعال نفسية جدية لها معنى وناجمة عن تضافر مصدرين مختلفين أو بالاحرى عن تعارضهما.

وعلى هذا فإن العوامل النفسية الفيزيولوجية من تهيج وشروذ وتشتت انتباه لا تسعفنا كثيراً في تفسير الهفوات، وما هي إلا تعابير لا تغني ولا تسمن وستائر لا يجوز لها أن تحجب عنا رؤية ما وراءها.

وهنا لا نستطيع أن ننكر بطبيعة الحال ما للمؤثرات الصوتية والتشابهات اللفظية والتداعيات المعهودة التي تقوم بين الكلمات من أهمية معلومة.

وقد تأخذ الفهوات وفلتات اللسان خمسة أبواب هي كالاتي:

١ ـ **القلب** : أن يقول قائل: ميلوفينوس بدلاً من فينوس ميلو(١).

٢ ـ **الاستباق**: كقول قائل: ما أجثم الهم الذي يجثم على صدري بدلاً ما أثقل الهم الذي يجثم على صدري.

٣ ـ **الاستلحاق**: كقولنا: أدعوكم الى شرب شخب(٢) رئيسنا بدلاً من نخب.

(*) المرجع السابق ص ٤٥.

(١) فينوس ميلو / هي جزيرة في اليونان اكتشف فيها ١٨٢٠ تمثال الالهة فينوس الشهير فنسب اليها.

(٢) شخب القتيل / سال الدم منه.

٤ ـ الادخال والادغام: كأن يقول فتى لفتاة دعيني أنافعك الطريق بدلاً من أرافقك الطريق، وكذلك يتضح الإبدال فبدلاً أن يقول قائل سأضع يدي في الجليد سوف أضع يدي في البريد.

ولكن الفلتة الأكثر تواتراً، والألفت للإنتباه هي تلك التي يهفو فيها اللسان بعكس ما كان يريد النطق به تماماً.

ومن الواضح أن العلاقات الصوتية أو تاثيرات التشابه لا تلعب هنا سوى دوراً طفيفاً للغاية.

فإذا استبعدنا هذين العاملين جاز لنا أن نتوقف عند حقيقة معروفة، وهي أن الأضداد تقوم بينها وشائج قوية على صعيد التصور وتكون قريبة الى بعضها بعضاً غاية القرب من حيث التداعي او الترابط السيكولوجي.

وثَمَّ أمثلة مشهورة في هذا الموضوع، فقد افتتح مرة رئيس مجلس النواب الجلسة بقوله: «سادتي، بالنظر الى اكتمال النصاب أعلن ارفضاض الجلسة» بدلاً من افتتاح.

وعلينا أن ننظر الى معقول هذه الفلتات والهفوات بحد ذاته بصرف النظر عن الكيفية التي تحدث بها.

الأحـــــلام

النـــــوم:

هو المدخل الرئيسي لباب الحلم موضوع بحثنا، وكذلك الاطار العام الذي يحتوي الحلم.

ولقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن تقسيم حياة الانسان الى عمل واخلاد للنوم والراحة.

من ذلك تقسيم الدهر الى ليل ونهار، ودليل ذلك في سور كثيرة منها سورة النبأ ﴿**وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً**﴾.

وكذلك سورة النمل ﴿**أولم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً**﴾.

وعم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قال في الحديث «إن النوم موتة صغيرة».

واستناداً الى ما سبق فان النوم ما هو إلا مفصلة فيزيولوجية أو بيولوجية وله سمات محددة من وجهة النظر السيكولوجية، فالنوم هو خلود الى الراحة وجزء من اجزاء عملية يقوم بها الفرد على مدار يومه خاصة وحياته عامة وهو حالة لا يريد النائم فيها أن يعرف شيئاً عن العالم الخارجي، حالة ينسلخ فيها اهتمامه انسلاخاً تاماً عن هذا العالم[1].

---

(١) نظرية الأحلام «فرويد»، دار الطليعة بيروت، ترجمة جورج طرابيشي ص، ١١، ١٢، ١٤.

ويتضح هنا أن القصد الأول والرئيسي من النوم هو الاستجمام والاستراحة كما يكمن طابعه السيكولوجي في خمود الاهتمام بالعالم الخارجي.

وبعد أن ذكرنا الصفات العامة للنوم، لا يسعنا إلا أن نذكر الثنائي والتوائم الخاص بالنوم والذي هو الحلم.

فعندما تصل هذه الكلمة الى مسامعنا مباشرة تأخذ مجرى الخيال سواء كان هذا الخيال واقعياً يمكن تحقيقه او مستحيلاً صعب المنال، إلا أن الحلم بعد تحديد كمه وكيفه يصل الأمر الى المعنى الواضح والمتعارف عليه لدى سائر الامم، هو الحالة المصاحبة للنوم الذي يكون فيه الفرد بعيداً جزئياً أو كلياً عن المنبهات كالمثيرات من العالم الخارجي المحيط بالشخص النائم، وهنا يبدو وكأن الحلم ضيفاً ثقيلاً على النائم.

الحلم هو ظاهرة نفسية تتبلور في حالة النوم، وتخرج في صورة حلم بشكل لا شعوري رغماً عن النائم، حيث إن الحلم هو الكيفية التي تستجيب لها النفس للتنبيهات التي تتعرض لها سواء كانت داخلية ام خارجية.

تكوين الحلم:

الحلم يتم بطريقتين مختلفتين:

فإما أن يكون انفعال غريزي «رغبة لا شعورية» تصبح قوة كافية في أثناء النوم لتفرض نفسها على الأنا أو سلسلة من الافكار الشعورية بكل ما تستعينه من منازعات لبعض العضيد في اثناء النوم بفعل عنصر لا شعوري.

وعلى هذا فان بعض الأحلام يصدر عن «الهو»، وبعضها الآخر عن «الأنا»، واولوية تكوينها تتماثل في الحالتين مثلما يتماثل شرطها الدينامي اللازم.

و«الأنا» إذ يعلن مؤقتاً وظائفه، ويتيح لحالة سابقة أن تعود، يدل على أنه يستمد أصله حقاً من «الهو».

وهذا كله يحدث بصورة مطردة، حيث أن الأنا يقطع روابطه بالعالم الخارجي ويسحب توظيفاته من اعضاء حواسه.

ويمكننا القول أن ثمة غريزة تدفع بالكائن الى الرجوع الى الحياة داخل الرحم تخلق عند الولادة هي غريزة النوم، وما النوم بالفعل الا عودة الى رحم الام.

وبما أن الأنا اليقظان هو الذي يتحكم بالطاقة الحركية فان هذه الوظيفة تشل في أثناء النوم وبهذا تشفي الحاجة الى شطر لا يستهان به من ضروب الكف المفروضة على الهو اللاشعوري، وعندئذ يتيح سحب هذه التوظيفات المضادة أو انقاصها ويعطي الهو قسطاً من الحرية لا ضرر فيه.

والأدلة على هذا الدنو الذي يضطلع به «الهو» اللاشعوري في تكوين الحلم عديدة ومقنعة فذاكرة الحالم تتسع في الحلم بقدر من الاشياء أكبر بكثير في حالة اليقظة.

ويستخدم الحلم على نطاق لا محدود اللغة الرمزية التي تبقى دلالاتها في غالب الاحيان مجهولة.

غير أن التجربة تتيح لنا أن نهتدي الى معناها وارجح الظن أن أصل هذه اللغة الرمزية تعود الى اطوار سابقة من تطور اللغة.

- وغالباً ما تستعيد الذاكرة في الحلم انطباعات من طفولة النائم الأولى، وبوسعنا أن نجزم بأن هذه الانطباعات ما كانت منسية فحسب، بل كانت أيضاً قد أحست لا شعورية بفعل الكبت، ولهذا لا يسعنا حين نحاول أن تعيد بناء طفولة الحالم على نحو ما نفعل في أثناء العلاج التحليل النفسي ان نستعين في اغلب الاحيان بالاحلام.

- ينبعث الحلم علاوة على ذلك مواد ليس مصدرها لا طفولة الحالم ولا حياته الراشدة ومن ثم لا مناص لنا من أن تعتبر هذه المواد جزء من الميزان الأثري محصلة خبرة الاسلاف الذي آل الى الطفل مع الولادة حتى قبل أن يبدأ بالحياة.

وإننا لنكشف في اقدم الأساطير البشرية، وكذلك في بعض العادات التي كتب لها البقاء عناصر مناظرة لهذه المادة السلالية.

هكذا يقدم لنا الحلم مصدراً لمعلومات ثمينة عن ما قبل التاريخ البشري.

غير أن ما يصبغ على الحلم قيمة لا تقدر، هو أن المادة اللاشعورية أو التغلغل

في الأنا» يجلب معها طرائق عملها أي ان الافكار القبشعورية التي تعبر عن هذه المادة تعامل في اثناء صياغة الحلم كما لو كانت عناصر لا شعورية من «الهـو».

أما الطريقة الأخرى في تكوين الحلم تتضح بكون الأفكار القبشعورية بعد أن يقصدها انفعال غريزي لا شعوري ترتد الى الحالة اللاشعورية وعن هذا الطريق فقط تكتشف القوانين التي تحكم السيرورات اللاشعورية وما وجه الاختلاف بينها وبين القواعد المعروفة للتفكير اليقظ...

والقوام الأساسي لعمل الحلم هو المعالجة اللاشعورية لأفكار قبشعورية وتستخدم تشبيهها من التاريخ: فالفاتحون الذين يغزون بلداً من البلدان يضربون بعرض الحائط القوانين السارية بها ويتصرفون وفق شريعتهم الخاصة.

على أنه من المؤكد أن عمل الحلم يتمخض عن تسوية تنظيم الأنا لا يشك بتمامه بل يظهر أثره واضحاً في التحريف الذي يطرأ على المضمون اللاشعوري وفي المحاولات الفاشلة في كثير من الاحيان التي تبذل لاعطاء هذا المضمون شكلاً يمكن للأنا أن يقبل بها[1].

«الصياغة الثانوية» وإن تابعنا تشبيهها قلنا إن لفي ذلك تعبيراً عن مقاومة المغلوب المستمر...

كيف يحدث الحلم:

تخضع حياة الانسان البيولوجية قيماعات دورية خاصة، أهمها حالتي النوم واليقظة، ويستغرق النوم حوالي ثلاثة ارباع حياة الانسان.

وفي النوم ينخفض مستوى النشاط الحركي والذهني كثيراً أثناء النوم، ولكنه لا ينعدم، ويتضح ذلك استجابة النائم لكثير من المنبهات الخارجية التي تطرأ عليه.

---

(١) مختصر التحليل النفسي (سيجموند فرويد) ترجمة جورج طرابيشي ص ٣٣، ٣٤، ٣٥. دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت.

وكذلك المراكز العصبية الدماغية، لا تكون في حالة سكون تام بل تكون في حالة شبيهة بحالة التخدير العميق، فلا يزال بعضها الآخر يواصل نشاطه، ولكن على نحو ضئيل منقطع، وقد تثير التنبهات الخارجية أو الداخلية أو أنا من الصور الذهنية يراها النائم وهي ما تعرف بالاحلام.

وهناك صلة بين الأحلام ومشاكل النهار، وما ورد على الذهن من خواطر وأفكار أثناء اليقظة، حيث أن الفرد يحلم أكثر من حلم واحد في النوم.

وقد تمتد صلة الحلم بحوادث الحياة الماضية البعيدة وخاصة الصدمات الانفعالية والتجارب العاطفية التي لا تنتهي وفقاً لرغبة الشخص، وهنا تتضح فائدة الحلم في كونه تحقيق لرغبة مكبوتة.

لا يتسنى لنا المعنى في التفسير العلمي عن معنى الحلم دون التطرق لأحلام اليقظة.

أحـلام اليقظـة:

هي عمل ذهني يقوم به الفرد في حالة وعي كامل لجميع حواسه وأعضائه وهو عكس الحلم في حالة النوم. ويتمثل بشردان الذهن والانطواء النفسي الى داخل النفس مستسلماً الفرد لهواجس وتخيلات فكرية تقطع الانسان عن العالم الخارجي بشكل جزئي.. وهذا النوع من الاحلام يساعد في كثير من الاحيان على توسيع أفق الشخصية وتذكير نشاطها.

وبهذا تكون استرجاع سلبي للذكريات والصور لانشاء تصورات جديدة وابتكارات فنية، ويتضح هذا الأمر جلياً بالتقدم العلمي والهندسي والتكنولوجي الذي نراه اليوم في حياتنا، وكل هذا التقدم والتطور الهائل يدين بالفضل الى التصور الذي يكون أساسه حلم اليقظة، والذي يكون البؤرة الأساسية للابداع والاختراع العقلي.

وتتأرجح أحلام اليقظة بين قطبين أساسيين هما:

١ ـ **الأحـلام** / ستفسر لاحقاً.

٢ ـ **التفكيـر** / وهو النشاط العقلي الذي يمتاز به الانسان دون سائر الخلق، وقد حباه الله بهذه الصفة الجليلة موضحاً ذلك في آية من سورة آل عمران ﴿**إن في خلـق السـموات والأرض، واختـلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذيـن يذكرون الله قياماً وقعوداً ويتفكرون في خلق السـموات والأرض**﴾.

وهذه الآية الكريمة تبين لنا أن هذه السمة قد منَّ بها الله على الانسان وحده دون سائر مخلوقاته على وجه الدنيا باستثناء الملائكة ويعتبر التفكير هو أساس أي عمل يمكن أن يقوم به الإنسان حيث أن الفكر هو المدخل الأول لتصور أي عمل ينوي الإنسان القيام به، وعند استسلام الإنسان للخيال يكون قد تعجل في الوصول الى الهدف بدلاً من السير في الطريق الشاق وفي هذه الحالة تكون الامور قد ارتبطت بمبدأ التزواج والتداخل والاختلاط في الأمور.

وبالتفسير يستحيل على الإنسان أن يسلك طريقاً واحداً طوال حياته سواء واقعياً أو خيالياً فتكون النتيجة الحتمية هو النهار والتمزق والانفجار.

فالانسان يجب أن تكون أحد قدميه في الواقع والاخرى في الخيال أي يحلم ويحقق الحلم في الواقع يحلم بالثروة الكبيرة فيعمل على تحقيقها بالجهد والمثابرة والنشاط والعمل والاجتهاد.

أنـواع الأحــــلام:

١ ـ أحلام تعبر عن رغبات مكبوتة وتمثل غالبية الأحلام.

٢ ـ احلام يكون فيها الحلم استباقاً لحدث متوقع حدوثه وهذا ما نراه بأحلام الجندي في المعركة مثل ـ اصابة هذا الجندي بعاهة أو شلل أو ما شابه ذلك.

الحلـم عنـد العامـــة:

إن كثيراً من الناس يرون في أحلامهم أشياءً وقصصاً، منها ما يكون خيالاً في حدوثه، ومنها ما يكون واقعياً. فإن يرى الانسان نفسه طائراً في الهواء أو يضرب بالرصاص في صدره ولا يموت، ومنها ما يكون فقيراً وأصبح تاجراً ميسور

الحال، وهكذا فيستطيعون التذكر وسرد ما رأوه على مسامع اصدقائهم بالشرح والتفسير، ومنهم من يشعر بأن أحداث الحلم كثيرة وتأخذ زمناً من الوقت يكاد يكون بالساعات ولا يتذكرون منه أي شي يذكر سوى انهم قد حلموا.

والجدير بالذكر أن الزمن في الحلم يختلف عن الزمن الواقعي، والعامة يؤكدون أن الحلم في تفسيرهم له حدود زمنية خلال النهار والليل وكل زمن محدود من الليل والنهار له في تفسيرهم تفسير خاص بالوقت الذي رأى فيه الفرد حلمه.

فاذا كان الحلم في النهار له تفسير وإذا كان في الليل قبل منتصفه أو بعد منتصف الليل، فذلك يدل على شيء ما حسب نوعية الحلم.

وكذلك يؤكدون بأن هناك فروقاً بالأحلام وهذا حسب ثقافة كل منهم. وبالنسبة للعامة هناك رؤية صالحة يختص بها فئة معينة من البشر وبالتحديد الشيوخ والصالحون المتمسكون بالدين أكثر من غيرهم.

فهؤلاء عند العامة تكون أحلامهم صادقة وسوف تتحقق في اليقظة ومن الناس من يقول إن الاحلام ما هي إلا رغبات لا يستطيع الانسان تحقيقها في الواقع، نتيجة لضوابط وقيود اجتماعية معينة فتحقق في الحلم، وبهذا يكونوا قد وصلوا للمدخل الصحيح العلمي والرأي الصائب في تفسير الحلم بشكل عام.

وعند فئة معينة من الناس يصل الأمر بهم الى الحد الذي يتقيد به سلوكهم بما رأوه في الاحلام من خير أو شر ويعيش يومه مرهوناً بالتفاؤل أو بالتشاؤم ظناً منه بأن الأمر سوف يتحقق أو يحدث.

وهكذا فإن الأحلام عند العامة لها تصور خاص واهتمام زائد في بعض الاحيان، ومن يحاول تشويه هذا التصور بالحقيقة العلمية التي تؤكد بأن الحلم ظاهرة نفسية، وهو عبارة عن تحقيق الرغبة، ينظر اليه بأنه قد خرج من المألوف ولا يؤخذ بكلامه أو تفسيره.

ويتمسك الحي الشعبي عند الناس بمعتقداتهم من دون أن يتأثروا إلا في أضيق الحدود بأحكام العلم وقوانينه ونظرياته، ودون أن يكترثوا للاحوال العميقة للحلم.

إن للحلم في نظرهم معنى ينطوي على نبؤة.

وحتى نستخلص هذه النبؤة من مضمون الحلم، الذي غالباً ما يكون مبهماً ملغزاً فلا بد من اللجوء الى بعض الطرق في التفسير، وهذه الطرق لا تعدوا أن تكون استبدالاً لمضمون الحلم، كما انطبع في الذاكرة بمضمون آخر من الممكن أن يتم هذا الابدال تفصيلاً بواسطة مفتاح لا يجوز أن يتبدل، ومن الممكن استبدال الموضوع الاساسي للحلم دفعة واحدة بموضوع اخر لا يعدو الأول أن يكون رمزاً له.

وأهل الجد يتسمون لهذه العيانيات في نظرهم ولسان حالهم يقول «حلم الجوعان عيش» «وانها أضغاث أحلام» وعلى هذا الاساس يكون مضمون الحلم عارياً من كل معنى وعصياً على كل تأويل مثله مثل النغمات التي تتصدر من ملامسة البيانو حين تعزف عليها يدّ لا خبرة لها بالموسيقى اما تعريفه في هذه الحالة فهو ببساطة كما يلي: «تظاهرة مادية عديمة الجدوى دائماً وحريصة في غالب الاحيان «بينغ».

أما تفسير الاشارات والرموز التي تميز الحياة الحلمية، فيكمن بالتالي في النشاط غير النسقي لمجموعات معينة من الخلايا، تظل في حالة يقظة في الدماغ تحت سلطان تلك المنبهات الفيزيولوجية بينما يلبث باقي الجسم غارقاً في النوم.

ولو قمنا باسترجاع التاريخ القديم لأجدادنا وأسلافنا قبل ثلاثة الاف عام أو أكثر ستجد أنهم كانوا يحلمون بمثل الطريقة التي نحلم بها اليوم.

وقد عزت جميع الشعوب القديمة في ما نعلم قيمة كبرى الى الاحلام، وعدتها قابلة للاستعمال العلمي.

فقد وجدت فيها دلائل لاستطلاع المستقبل والتمست فيها فالاً وطيره، وما كان الاغريق والشعوب الشرقية ليتصوروا حملةً عسكرية بلا مفسري أحلام، مثلما نحن اليوم لا نتصور حملة بدون وسائل الاستكشاف التي يوفرها الطيران والاجهزة الحديثة المتقدمة.

ويوم شرع الاسكندر الاكبر بحملته الفاتحة، سيّر في ركابه أشهر مفسري الاحلام في زمانه.

فلما واجهته مدينة صور (في لبنان) بمقاومة ضارية، عزم على رفع الحصار عنها إلا أنه رأى في منامه ساتيروسا[1] يرقص رقصة من رقصات النصر، فلما استفسر عنه منجمه أكد له بان تلك بشرى النصر على المدينة، فأمر بالهجوم وتم الاستيلاء على المدينة، وإن تفسير الاحلام راجح الكفة على امتداد العهد الاغريقي - الروماني والواقع إن الاهتمام بالأحلام «ينحط رويداً رويداً الى درك الخرافة والاباطيل ووجد ملاذه الاخير لدى الجهلة من الناس». ولعل آخر مظاهر سوء استعمال هذا الفن يتمثل في يومنا هذا الحاضر في الرجوع الى الاحلام لمعرفة الارقام التي ستفوز في الياناصيب او تقيد عمل الانسان بما يقوله المخيون والدجالون.

الحلم في التحليل النفسي:

ما كان للبشرية أن تحمل نفسها مشقة تأويل أحلامها في العصر القابل للوصف بأنه عصر ما قبل العلم.

فالاحلام التي تبقى في الذاكرة عند اليقظة كانت تعد تجلياً نافعاً او مناراً للقوى العليا من آلهة أو أباله. ومع تفتح الروح العلمية اخلت كل تلك الأفكار الميتافيزيقية الساحة لعلم النفس. ويجمع اليوم العلماء قاطبة على عزو الحلم الى النشاط النفسي للنائم بالذات. إن المعضلة التي تطغى على اهتمامنا الأول معضلة دلالة الحلم لهي ذات وجهين، فمن جهة أولى نبحث عما يعنيه الحلم من وجهة النظر السيكولوجية وعن مكانته في منظومة الظاهرات النفسية. ونريد من الجهة الثانية أن نعرف هل الحلم قابل للتأويل؟ وهل ينطوي مضمون الحلم مثله مثل أي نتاج نفسي آخر؟.

وفي العصور السابقة كان الفلاسفة يروجون لفكرة أن الحلم هو أصل خارق للطبيعة، وحالات الحلم في نظرهم يكمن مبدؤها في حالة خاصة من النشاط

---

(١) الساتيروس / من اشباه الالهة لدى الاغريق، رفيق باخوس كان بشعر مشعث واذنين مدينيين وقرنين صغيرين وساقي تيس.

النفسي أي هو ضرب من ارتقاء الروح نحو حالة عليا، ذلك هو على سبيل المثال رأي شوبرت بالحلم (يتحرر الفكر من قيود الطبيعة الخارجية وتتملص الروح من أغلال الشهوانية). ويؤكد آخرون من غير أن يتطرفوا هذا التطرف، إن الاحلام في جوهرها تنبيهات نفسية، وإنها تجليات لبعض القوى النفسية التي تحول حالة اليقظة دون تطوراً حراً.

أما الأطباء الذين يكتبون عن الحلم، فيقولون بوجه عام، برأي معاكس جذرياً لرأي الفلاسفة، فهم يكادون لا يقرون للحلم بأي قيمة بوصفه ظاهرة نفسية.

فهو ينجم في رأيهم عن تنبهات جسمانية تأتي الى النائم من العالم الخارجي ومن أعضائه الداخلية على حد سواء...

والتحليل العلمي للحلم هو ظاهرة نفسية أي نشاط يعكس أشكال عديدة من الاشكال النفسية. فلوا استطعنا فهم الحلم فنكون قد استطعنا فهم أنفسنا.

وبهذا يكون معنى الحلم في التحليل النفسي هو نشاط نفسي إنساني يحكمه قانون أول الا وهو (تحقيق رغبة) والرغبة لها صفتين: احداهما خيالية والأخرى رغبة يصعب على صاحبها تحقيقها.

وعلى ما سبق نستطيع أن نقول إن الحلم هو لغة الحالم. وإن الانسان بهذا يكون محكوم بمبدأين:

١ ـ الواقع والتعامل معه.

٢ ـ الخيال وما تحقق فيه من لذة، وهذا التحقيق يؤدي الى خفض التوتر والاضطراب، وهنا تتضح فائدة الحلم في العمل على التوازن الصحيح بين الواقع والخيال[١].

ولم يقف التحليل النفسي عند هذا الحد من التفسير حول الحلم بل امتد الى

---

(١) الحلم وتأويله ـ فرويد ـ دار الطليعة بيروت، ترجمة جورج طرابيشي ص ٥، ٦، ٧.

اكثر من ذلك الى اعتبارات عديدة منها الآتي:

- الحلم اشارات لا يعبر عن المستقبل، بل دائماً يعبر عن الماضي.
- الحلم لغة بصورة، وليس لغة لفظية.
- الحلم ظاهرة كما يرويه صاحبه.
- الحلم يحفظ ماء الوجه في كثير من الاحيان.
- هو حماية النوم.
- في الحلم تتحقق الرغبة تحقيقاً هلوسياً.

المعنى الظاهر والمعنى الكامل للحلم:

إن الانتقال لمعرفة افكار الحلم الكامنة لا تتوصل الى فهمه إلا عن طريق مجهود منهجي.

ونظراً الى العلاقة القائمة بين مضمون الحلم الكامن ومضمونه الظاهر يمكن تقسيم الاحلام الى ثلاث فئات:

في الفئة الأولى نضع الاحلام الواضحة المعقولة التي تبدو مستعارة بصورة مباشرة من حياتنا النفسية الواعية وليس فيها ما يثير الخيال والدهشة.

والفئة الثانية هي الاحلام التي تثير الدهشة كأن يرى النائم إن شخصاً عزيزاً عليه أصيب بالطاعون وقضى نحبه وهنا يتساءل الفرد «من أين لهذه الفكرة ان تحضرني؟».

وفي الفئة الثالثة تقتصر الأحلام الى المعنى الواضح ويسودها الغموض والتفكك.

ومن هنا نستخلص أن التعارض بين مضمون الحلم الكامن، ومضمونه الظاهر لا يمثل أهمية إلا بالنسبة الى أحلام الفئة الثانية والفئة الثالثة. أما بالنسبة الى أحلام الفئة الاخيرة نصادف الألغاز التي لا سبيل الى حلها إلا إذا جرى استبدال المضمون الظاهر بالمضمون الكامن.

ثمة علاقة خفية وضررية بين الطابع المبهم واللامفهوم للحلم وبين المقاومة التي تواجه كل محاولة لجلاء مكرته الكامنة.

وفي الغالب يعبر الحلم عن الرغبة تعبيراً غير مباشر، ومن هنا علينا ان نضيف الى السلسلة الحلقة المفقودة منها إذا أردنا الوصول الى فكرة النائم الحقيقي. وهنا تكمن بداية الطريق للوصول الى فكرة تأويل الحلم.

وحتى الأحلام التي تبدو سطحية للغاية ليست بسيطة البتة بساطة احلام الأطفال وأن ثمة معنى خفياً يكمن وراء صورة اللذة المتحققة.

إن لغز الحلم سيجد حله بلا ريب على أبسط نحو بصورة مرضية ومقنعة الى أبعد الحدود. هذا لو أتاح لنا التحليل أن نرجع أحلام الراشدين الى النمط الطفلي الأول، خاصة لو كانت الاحلام غامضة ومبهمة، ولا يتضح معناها في الوضوح التام للحلم. ولتوضيح هذا الأمر إليكم حلم طفل لا يفهم للوهلة الأولى، ولكن هو الاخر تحقق رغبة لا أكثر ولا أقل، فتاة صغيرة في حوالي الرابعة اقتيدت[1] من الريف الى المدينة لإصابتها بشلل الاطفال، وقد قضت الليل لدى عمةٍ لا أطفال لها في سرير لا يناسب حجم قامتها. وفي صبيحة اليوم التالي قالت إنها حلمت بأن السرير صغير كثيراً بحيث لم يعد لها متسعاً فيه.

إن لغز هذا الحلم من حيث انه تحقيق لرغبة سهلة الفك والتوضيح.. فمن يجهل أن الاطفال لا يرغبون في شيء بقدر رغبتهم في أن يصيروا كباراً. وقد ذكرت طول السرير هنا لوهن مكانتها عند عمتها، ولم تحترمها اطلاقاً، وذلك استناداً الى قصر سريرها فأسرعت الفتاة تتدارك هذا الموقف المذل في الحلم، فصارت كبيرة للغاية حتى لم يعد السرير يسعها لكبر حجمها.

---

(١) الحلم وتأويله «فرويد» ترجمة جورج طرابيشي، دار الطيعة للطباعة والنشر بيروت، ص ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.

أحـلام الطفـولـــة:

إن أحلام الأطفال هي أحلام متماسكة ومترابطة وواضحة كل الوضوح على الدوام قابلة للفهم بسهولة لا يكتنفها أي التباس.. ولكن تحريف الأحلام يلاحظ أيضاً لدى الأطفال وحتى في زمن مبكر جداً.

ويمكن حصر المدة الزمنية لهذه الاحلام المسماة بأحلام الطفولة ما بين الخامسة والثامنة، وهذه الفترة الزمنية تكون بداية للنشاط النفسي القابل للتميز عند الطفل، وإن الطابع هنا يكون طفلي. وقد نجد عند بعض الراشدين أحلام تتميز بالطابع الطفلي.

وعن طريق تحليل هذه الأحلام الطفلية نستطيع أن نظفر بسهولة كبيرة وبقدر عظيم من اليقين بمعلومات عن طبيعة الحلم. ولكي نفهم هذه الاحلام لسنا بحاجة لا إلى التحليل ولا إلى تطبيق تقنية ما عليها ولا يتعين علينا ان نستجوب الطفل الذي يروي حلمه غير أننا يجب أن نحلل هذه الاحلام وذلك بتجميع معلومات عن حياة الطفل.

ومثال ذلك ما يحدث للطفل الذي قد يحلم بمشكلة واجهته قبل يوم أو أكثر ولم يستطع تحقيق رغبته فيها فالحلم هنا ليس إلا استجابة أثناء النوم للحدث الذي وقع في حالة اليقظة.

مثـال من أحـلام الطفـولـة:

قامت فتاة تبلغ من العمر ٣ سنوات بنزهة إلى عرض البحر ولما رست المركب على الشاطىء رفضت النزول وظلت تبكي بكاءاً مريراً حيث بدا لها ان مدة النزهة أقصر مما ينبغي «وفي اليوم التالي روت لأهلها بأنها سافرت الليلة في البحر» مع العلم أن اليوم الأول للنزهة مع أهلها كان أطول مما روته الفتاة.

عمـل الحلـــم:

العملية التي تحول الحلم الكامن الى حلم ظاهر تسمى عمل الحلم. أما العملية المعاكسة تلك التي تنفذ من الحلم الظاهر لتصل الى الحلم الكامن فتسمى عمل التأويل. إذن فعمل التأويل يسعى الى إلغاء عمل الحلم وحتى الأحلام الطفلية والتي نتعرف فيها بلا مشقة على تحقيقات الرغبات يطالها على الحلم ولو ضمن حدود ضيقة.

ومن ذلك التحول الرغبة فيها الى واقع وأن تتحول الأفكار أيضاً في معظم الحالات الى صور بصرية..

وأما في الأحلام الأخرى فإن عمل الحلم يقترن بتحريف الحلم ولا يكون ثمة من سبيل الى الغاء هذا التحريف إلا بعمل التأويل. وإن لعمل الحلم تأثيراً يبعث على دهشة أكبر وذلك عندما يرجع عمله الى تفكك وعدم الارتباط في أحلامنا.

التكثيف... يعتبر أول مفعول لعمل الحلم، ويقصد به أن محتوى الحلم الظاهر يكون أصغر حجماً من محتوى الحلم الكامن، وإنه يمثل بالتالي ضرباً من ترجمة مختصرة له، وقد ينعدم التكثيف أحياناً ولكنه في أكثر الأحيان قائم، وكثيراً ما يكون بعيد الأثر، أي إنه لا يتفق أبداً أن يكون الحلم الظاهر أوسع مدى من الحلم الكامن أويكون ذا محتوى أغنى، ويتم التكثيف بواحدة من المرات الثلاث.

١ ـ إما أن تحذف بعض العناصر الكامنة برمتها.

٢ ـ أو أن تبقى بعض من الاجزاء التي يتألف فيها الحلم في الحلم الظاهر.

٣ ـ أو أن تنصهر العناصر الكامنة ذات السمات المشتركة مع بعضها في الحلم الظاهر وهناك أمثلة كثيرة حول هذا التكثيف مفصلة في «النكتة وزلات اللسان والهفوات..».

وقد يستخدم عمل الحلم عدة أساليب منها:

١ ـ يستخدم اسلوب لا يخلو من الشذوذ في نسخ أفكار الحلم.

٢ ـ عمل الحلم النقل بصورتين يجري استبدال عنصر كامن بعنصر آخر بعيد عن المعنى مثل التورية في اللغة العربية، وهي تحمل معنيين معنى قريب والآخر

٣ ـ يتحول التشديد النفسي من عنصر هام الى آخر غير ذي أهمية بحيث يصير للحلم مظهر آخر يظهر به وكأنه أمرٌ غريبٌ.

٤ ـ تحويل الأفكار الى صور بصرية التي تلعب دوراً رئيساً في تكوين الاحلام. وهذا الجانب هو اكثر جوانب عمل الحلم ثباتاً واطراداً.

إن أفعال التكثيف قد تكون خارجة احياناً من نطاق المألوف. إذ قد تتح الفرصة لسلسلتين من الأفكار الكامنة، متباينتين كل التباين أن تجتمعا في حلم ظاهر واحد بحيث قد نظفر بتأويل مرض في الظاهر لحلم من الأحلام من دون أن نفطن الى امكانية تأويلٍ من الدرجة الثانية.

ومن شأن التكثيف أيضاً أن يشوش ويعقد العلاقات بين عناصر الحلم الكامن وعناصر الحلم الظاهر.

ومن ذلك إن عنصراً من الحلم الظاهر قد تناظره عدة عناصر كامنة، كما أن عنصراً من الحلم الكامن قد يسهم في عدة عناصر ظاهرة..

والحق إن الرمزية قد تكون أبرز الفصول وألفتها للانتباه في نظرية الأحلام، ولنذكر قبل كل شيء إن الرموز بصفتها ترجمة دائمة ثابتة تحقق الى حد ما المثل الأعلى للتفسير الشعبي والقديم للأحلام، وتتيح لنا الرموز في بعض الظروف أن نؤول حُلماً من الأحلام من دون أن نستجوب صاحب الحلم الذي لا يملك على كل حال أن يضيف شيئاً الى الرمز فحين تكون على معرفة بالرموز المألوفة في الأحلام وبشخصية صاحب الحلم وبالظروف التي يعيش في ظلها وبالانطباعات التي كان الحلمُ عاقبتها فكثيراً ما نقتدر على تأويل الحلم بدون أية صعوبة، وعلى ترجمته وكأننا نقرأ في كتاب مفتوح.

وبراعة كهذه من شأنها أن تدغدغ غرور المؤول وأن تبهر الحالم كما أنها تشكل بديلاً مريحاً من تلك العملية الشاقة التي تتمثل باستجواب الحالم، ولكن لا يجب أن نغتر بهذه السهولة.

وإن اكتشاف هذه الرمزية في الاحلام ترجع الى العصور الحديثة وهذا

ينسب الى الفيلسوف ك. أ. شريز ١٨٦١، وكل ما فعله التحليل النفسي أنه أتى بما يؤيد هذا الاكتشاف، كما انه أدخل عليه تعديلات جوهرية.

إن العلاقة الرمزية في جوهرها علاقة مقارنة، ولكن لا يكفي أن تقوم أية مقارنة حتى تقوم العلاقة الرمزية بدورها.

إن للرمزية حدود وحتى هذا الحد لم يحدد بدقة وجلاء، وإنه كثير ما يلتبس بتصور الابدال أو تصور التمثيل وإنه قد يقترب حتى من تصور التلميح. وفي بعض الرموز تكون المقارنة التي تقوم هذه الرموز على اساسها واضحة وجلية، ولكن ثم رموز أخرى ترغمنا على التساؤول أين ينبغي أن نبحث عن العامل المشترك وعن وجه الشبه في المقارنة المفترضة.

وإذا كان الرمز يعتبر مقارنة فمن العجب ألا يكشف لنا التداعي عن هذه المقارنة وأن يكون الحالم نفسه جاهلاً بها وأن يستخدمها من دون أن يعرف عنها شيئاً بل الأعجب الا يبدي الحالم أي استعداد للاعتراف بها إذا ما كشفت له.

وان المواضيع والاشياء التي تلقى في الحلم تمثيلاً رمزياً لها ليست كثيرة العدد، ومنها الجسم البشري في جملته، الوالدين، الأولاد، الأخوة، الأخوان، الموت ـ العري، البيت.

وكل ما سبق ذكره يمكننا أن نصل الى الهدف المراد توضيحه للرمز في الحلم على نحو يكون مرضياً ممثلاً للاشياء التي تكثر وقائعها في الأحلام. إن الرموز تستخدم شيئاً مضاداً يرمز الى عكسه «فطن الإنسان إلى الدلالة الرمزية، وخاصة ابن سرين في كتابه تفسير الأحلام، والذي أوضح فيه مجمل الدلالات الرمزية التي طبع عليها طابع الخرافة والاجتهاد، وإن كشف لغة اللاشعور هو أخطر كشف في العلوم الانسانية، وقد وصل هذا الكشف أن يعرف الانسان نفسه بعد ان كان يجهلها من قبل، والانسان يغلف نفسه باقنعة تشكل في مجملها ميكانيزمات الدفاع، وعلى هذا فإن معرفة الانسان لا تتم إلا في الاختبارات الاسقاطية وبالتحليل النفسي المنهجي».

تعريـف الرمـزيـــة:

ـ تعبر عن شيء بشيء آخر وهو الرمز الذي يعبر عن الشيء الأول. وهو الأصل، وأشهر أنواع الرموز هو الألوان والضوء.

ـ الرمزية لغة عالمية وعامة وشائعة وكونية، وهنا يتأكد بأن الرمز يدل على أن طبيعة العقل البشري واحدة في الأساس والفروق الموجودة هي فروق داخل قوانين العامة.

ـ الرموز تشمل وتمتد بجميع أشكال الحياة / الاسطورة، الدين الفن.

ـ الرموز هي شيء يقوم مقام شيء يشير إليه.

ـ الرمزية تقوم على ثلاثة مبادىء هي:

ـ التشابه في الشكل.

ـ التشابه في الوظيفة.

ـ التشابه في الانفعال الذي يحركه الرمز والمرموز إليه.

مثـال:

١ ـ (المرأة + الشجرة) الوظيفة هي الانجاب والاثمار.

٢ ـ (المرأة + البقرة) تشابه في الوظيفة (الانجاب) اضافة الى عطاء دون حدود.

دلالـة الرمــوز:

ـ العضو الذكري ـ العصا، المظلات، جذوع الاشجار، الاسلحة النارية، الخناجر، السيوف، السهام، الرماح أي كل الأشياء التي باستطاعتها الولوج في الجسم، ويمكن أن يرمز إلى العضو الذكري بأشياء أخرى مثل السوائل، الصنابير، الاباريق، النوافير. وقد يرمز الى العضو الذكري بأشياء قابلة للتمدد والاستطالة مثل: المصابيح المطاطة والاقلام الكباسة وبالنظر الى الخاصية التي يتميز بها هذا العضو وأعني قدرته على الانتشار الى أعلى وكأنه يتحدى قانون الثقالة وهذه خاصية جزء من ظاهرة الانتصاب والمناطيد والطائرات..

ولكن الحلم يعبر عن ذلك بتعبير أكثر دقة في أن يرى الانسان نفسه يطير، وبهذا يجعل العضو الجنسي ماهية الشخص بالذات.

- جهاز المرأة التناسلي / فيتمثل رمزياً بكل الاشياء التي فيها تجويف وبالتالي تكون أوعية ومستودعات أمثال ذلك المناجم والحفر، والكهوف، والعلب والصناديق والجيوب، المراكب، الافران، الغرف، تشير هذه المتشابهات جميعها الى الرحم أكثر ما تشير الى الجهاز التناسلي بحصر المعنى.

رمز الباب والبوابة يشيرا بدورهما الى مدخل الفتحات التناسلية، والرمز الى الفم يشير الى الفتحة الجنسية.

الثديين - يرمز إليهما بالتفاح وجميع أنواع الفواكه المستديرة أو الممثلة بنصفي كرة.

شعر العانة - يرمز له بالغابة والأدغال.

ومن الرموز اللافتة للنظر بالنسبة الى جهاز المرأة التناسلي مثل علبة المجوهرات، وخاصة ما يوضع بها من «حلي» والذي هو بمثابة مداعبات وملاطفات توجه حتى في الحلم الى الشخص المحبوب، وكثيراً ما ترمز السكاكر والحلويات الى المتعة الجنسية.

- ومن رموز الاستنماء الانزلاق، التزحلق، اقتلاع أغصان الاشجار. ويرمز للخصاء بقلع السن. والرموز الذكرية بمجملها مثل المعطف والقبعة وربطة العنق وكل ما يشير الى الرجل في ذاته.

- السلم - الدرج - الدرابزون - وهي تتم العملية بالارتقاء والصعود والهبوط ويمكن القفز أحياناً والجلوس أحياناً أخرى وهذه جميعها رموز تعبر عن العلاقات الجنسية. ولو أمعنا التفكير في الأمر لوجدنا أن العامل المشترك هنا هو ايقاع الارتقاء وربما أيضاً تصاعد التهيج وضيق التنفس طرداً مع الصعود.

الاغتصـــاب الجنســـي:

يرمز اليه باغتصاب الوطن والاشياء الغالية والنادرة جداً أحياناً كثيرة، ويظهر هذا الأمر جلياً على المسارح وفي الروايات والقصص والأفلام والرحيل والسفر يرمز الى الموت والفناء.

والافران جميعها / ترمز الى رحم المرأة وألسنة اللهب فيها ترمز الى العضو الذكري. ورمز الولادة يرمز اليه في الاحلام بالخروج من الماء او الانهار والبحيرات.

البحـــار والميـــاه:

ترمز الى الحياة والموت، لأن في الماء تعيش الكائنات وبالماء أيضاً تموت مثل الغرق مثلاً.

وقد ترمز البحار الى المرأة حيث تشابه في الوظيفة هنا حيث أن البحر يمثل خطراً عظيماً في تقلبه وهدوئه وهيجانه وكذلك المرأة. وأحياناً يوصف الرمز الى المركب والبحر بالمرأة لأن الأمن والأمان للانسان يكون في المركب في عرض البحر الذي تحمله في جوفها وتسير به فوق الماء والمرأة هنا مشابهة تماماً تحمل الأجنة في جوفها، فإما أن يموت الجنين أو يخرج الى الحياة كما يخرج قبطان المركب الى شاطىء الأمان.

الوجـه الآخـر للمـــاء:

الطابع الانثوي مثل الليونة والتموج والرقص في النافورة وهنا تكمن صفات المرأة.

وفي سياق الحديث نفسه بهذه الصور الرمزية يكون الطوفان والاعصار، وهنا رمز الى الدمار والموت والهلاك.

ويوجد رمزين هامين مستمدان من الطبيعة هما:

١ ـ **القمر** / المرأة في الدورة الشهرية والقمر في دورته الكونية، كل شهر اضافة الى صفة القمر في بدايته وكبره في نهاية الشهر يشبه المرأة في صغر بطنها في بداية الحمل وكبر بطنها في نهاية الحمل.

ووجود القمر وغيابه وما كان يمثل وما يزال من أمن وراحة وطمأنينة الى البشر وجمال وخاصة في الغزل وما يوصف العشاق به من يعشقوهن من الحسنوات وما يشبهوهن بجمال القمر وعلو مركزه وهكذا.

وان حضوره وغيابه كما سبق ذكره وما يمثل هنا يشبه تماماً غياب الأم وحضورها عند طفلها الرضيع وما يشعر به الطفل من أمن وطمأنينة.

وكذلك جمال المرأة واستدارة وجهها وجمال القمر واستدارته مع العلم العلمي الواضح ان القمر ليس جميلاً، بل هو مظلم وما نراه من نور هو انعكاس ضوء الشمس عليه في مراحل دوران الكرة الأرضية. وهذا ما يثبت التأكد منه بعدم التقدم العلمي والتكنولوجيا الحديثة.

٢ ـ الشمس / ترمز الى الأب في جبروته فهي تدفيء وتحمي، وكذلك الأب والوجه الثأري للشمس يتضح جلياً في شمس الصيف وخاصة في الصحراء.

وأخيراً توجد رموز كثيرة يمكن الاستدلال عليها من خلال ما سبق ذكره بالتمثيل والمطابقة في الوصف والمقارنة بين الأشياء.



الفصل الخامس

الأمراض النفسية



العصـاب «الأمـراض النفسية»

مما لا شك فيه أن الأمراض العصابية أصبحت تواجهنا بمشكلة صحية عامة. إذ أن مدى انتشارها يفوق ما نعرضه عن الامراض العقلية والعضوية. فهي في الحقيقة أكثر فروع الطب النفسي والعقلي شيوعاً، ويتسم العصاب بصورة عامة بصراعات داخلية وبتصدع في العلاقات الشخصية وظهور أعراض مختلفة أهمها: القلق والخوف، الاكتئاب، الوساوس، الافعال القهرية، وسهولة الاستثارة، الحساسيات الزائدة واضطرابات النوم وكذلك الاعراض الهستيرية.

ويحدث ذلك دون المساس بترابط وتكامل الشخصية وفي هذا يتحمل المريض مسؤولية كاملة في القيام بواجباته كمواطن صالح في الحياة، والتجاوب مع الآخرين دون احتكاك واضح مع سلامة الادراك واستبصار المرضى بآلامهم والتحكم في الذات مما يميز هذه الاستجابات العصابية من الذهان الذي تضطرب فيه هذه الصفات.

وقد اختلف الكثير في تحديد معنى العصابي، حيث أن هذا اللفظ يطلق على كل من لم يستطع التكيف مع المجتمع أو التأقلم مع العادات المألوفة، أو أصيب باثارة عصبية لحد المبالغة، ومن ثم كان المبدعون والخلاقون والفنانون وكل من ثار على نظم أو أسس المجتمع أو الاسرة عصابياً، وبالطبع هذا ليس المفهوم الذي نعنيه فالعصابي هو الشخص الذي من خلال صراعاته الداخلية وصراعاته مع المجتمع أصبح يعاني من أمراض نفسية متعددة تجعله غير قادر على الاستمرار او الانتاج كما ينبغي، وهو من خلال هذه المعاناة يطلب المساعدة للوصول الى درجة من الرضى والمرونة والاستمرار.

وقد أصبح من المتفق عليه الآن أن اسباب الامراض العصابية هي ترابط عدة عوامل منها ـ الاستعداد التكويني «الوراثي»، مراحل النمو في الطفولة.

العوامل النفسية والاجتماعية الحالية والتي تساعد على ظهور المرض، العوامل الحضارية، الاستعداد الفسيولوجي للجهاز العصبي، ولقد افترض فرويد أن العوامل الرئيسية التي تحدد ماهية الشخصية وتسبب الاستجابة العصابية هي مؤثرات بيئية تظهر في الخمس سنوات الأولى من حياة الفرد وأن أي صدمة نفسية خلال هذه الفترة تؤثر على النمو الجنسي للطفل وتجعله في حالة «تثبيت» ولا يستطيع العبور بعدها للمرحلة التالية مما يؤثر فيما بعد على حالته النفسية وبالتالي تظهر الامراض النفسية عند تعرضه لأي اجهاد أو شدة.

وقد اوضح فرويد بين العصاب الحقيقي وبين العصاب النفسي، فالعصاب الحقيقي يظهر نتيجة لحالات جسيمة تنشأ من اضطراب الحياة الجنسية للفرد مثل الزهد او الانغماس الزائد، أما العصاب النفسي فهو سيكولوجي المنشأ وقد فسر فرويد السلوك العصابي بنظريات مختلفة منها:

١ ـ ذكر فرويد في أول الامر أن العصاب النفسي ينشأ نتيجة صدمة نفسية جنسية خلال السنوات الأولى.

٢ ـ ثم فسر السلوك العصابي على اساس الصراع الأوديبي بين الطفل وبين أحد والديه من الجنس الآخر ثم اضاف في شرحه أن أصل العصاب النفسي هو الصراع الشديد بين مكونات الشخصية خاصة (الهو والأنا الأعلى) ثم فسر أن الاهمال البيئي المبكر بأنه من العوامل المشجعة للعصاب.

٣ ـ أظهر تصنيفه للاستجابات العصابية بأربع أنواع، عصاب الوسواس القهري وهستيريا القلق والهستيريا التحويلية والنيوراستينا.

الأعصبــة النفســية:

طبيعة العرض العصابي النفسي...

ان حالة الاحتباس «الانغلاق» المتولدة عن صراع عصابي لا يبدو من الممكن تغيرها إلا باقتحام من الحفزة الاصلية أو بازدياد شدة الدفاع، ومع ذلك فثمة في الواقع امكانية ثالثة تبدو متناقضة للنظرة الأولى.

حدوث الامكانيتين معاً فهناك مصالحات تتيح للحفزة المستهجنة مخرجاً بديلاً، ولكن هذا المخرج البديل من شأنه أن يعين على كبت المتبقي من الحفزة الأصلية، فجزء من الطاقة الحبيسة يفرغ، ولكن على نحو يدعم الدفاع ضد بقية الطاقة.

والمستودع الكبير الذي تنهل منه التكوينات البديلة هو أحلام اليقظة فالاخابيل المشبعة للرغبة التي يصطنعها الفرد ملاذاً عن واقع أليم يمكن بسهولة أن تستخدم كمشتقات للحفزات الطريدة «المكبوتة» وهذه الاخابيل إذا أسرفت في شدتها او إذا أسرفت في اقترابها من المضمون المكبوت فإنها يمكن بدورها أن تتعرض للكبت.

ومن ثم فإن الاعراض العصابية ليست دائماً تعبيرات مباشرة عن الحفزات المكبوتة بل هي بالأحرى تعبيرات غير مباشرة تتخذ اشكالها النوعية بأحلام يقظة اشتقاقية وسيطة ما بين الحفزة الاصلية والعرض النهائي.

وتكون المشتقات ونضالها وصولاً الى التعبير الحركي إنما تنظمها الميكانزميات الخاصة بتكوين الاعراض والميكانزميات الغالبة بين ميكانيزمات تكوين الاعراض هي التي تحدد جملة الاعراض والمسار الاكليني للعصاب. وقد قرر فرويد بصورة قاطعة أنه في كل عصاب قهري توجد نواة من هستيريا التبدين وأن كل عصاب بصورة عامة هستيريا قلق طفلية.

القلق في هستيريا القلق:

أبسط صورة المصالحة بين الحفزة والدفاع هي القلق، فهو الباعث على تكشف الدفاع بينما سبب القلق مكبوت، ففي عصاب القلق ثمة توتر داخلي عام يترجم عن نفسه في قلق دائم يطفو طليقاً أو في استعداد للقلق. أما في هستيريا القلق فالقلق يرتبط نوعياً بموقف خاص يمثل الصراع العصابي.

فالشخص المتوتر يستجيب لموقف خطر بطريقة تختلف عن شخص عادي، فالشخص السوي يستحدث نوعاً من الخوف يمكن أن تفيد منه الأنا بينما الشخص المتوتر لديه استعداد كامن للانفجار، فإنه تحت تأثير سيل منضاف من الخوف ولّدَه

ادراك الخطر يعتريه الشلل وكما أن الشخص العصابي يستجيب لخطر واقعي بالذعر بدلاً من أن يشعر بالخوف فيستجيب بحبسه فانه بنفس الطريقة يستجيب لخطر وهمي بالذعر.

وفي الغالبية العظمى من الحالات كان يوجد خلال فترة ما استعداد عام لاستحداث القلق، نمط عصاب القلق ثم تطرأ واقعة فتبعث بطريقة لا شعورية الصراع والاساس المولد للمرض.

تقصد الأنا الى الانذار يفشل الانذار فتنطلق النوبة الأولى لهستيريا القلق والموقف الباعث على القلق وحدوده ونوعيته يمكن اعتباره قنطرة تربط بصفة ثانوية بين الاستعداد الاولي العام للقلق ومضمونه النوعي اللاشعوري.

وبذلك ينضبط الاستعداد الدائم للانفجار في عصاب القلق ما دام يشتعل ثقاب التلميح الى الموقف النوعي، ولكن متى لاحت المواقف يبرز القلق وتستحدث الأنا بصفة ثانوية اجراءات تحاول بها محاربة هذا القلق هو الآخر.

فهستيريا القلق التي فيها الخوف الباعث على الدفاع ما يزال صريحاً وهي أبسط انواع العصاب النفسي ومن هنا فإن الاستجابات العصابية الأولى للاطفال تتخذ كقاعدة عامة صورة هستيريا القلق.

أمثلة لمواقف قلق تمثل عقوبة لا شعورية:

إن الشارع المرهوب يتمثله المريض لا شعورياً مكاناً خطراً يمكن أن يتعرض فيه للرؤية والقبض والانفراد يتمثل انعداماً للحماية أمام القوى المنتقمة «البعبع» وان ما يثير القلق عند المصابين بهستيريا القلق هو في الغالب بديل عن فكرة الخصاء.

ففي حالة هانز الصغير كانت الدلالة اللاشعورية لخوفه هو من أن يعضه الحصان تعبيراً نكوصياً في المستوى الفمي خوفاً من الخصاء. ومريض آخر كان يخاف أن يعضه كلب، ودهش عندما كشف التحليل النفسي أن هذا الخوف استناداً الى احاسيسه البدنية اثناء الجلسات ينصب في الواقع على عضوه التناسلي.

والكثير من مخاوف توهم المرضى «الهيبوكوندريا» تعني «إما من الممكن أن أصير خصيا» وإما قد ينكشف الأمر إنني أصبحت خصياً حقاً وهناك فوبيان السقم حدثت ذلك في طفولة المصابين ازاحة للخوف من الخصاء.

كانت تلك النوبات في البداية تمثل مخاوفاً لاستعراض قضيب اخيولي، ولكن معرفتها باخيولة هذا القضيب قد احدثت تحولاً من الانحراف الى هستيريا القلق.

وعند مريضة ادمان على العطور كان يرجع هذا الغرض في الاصل الى خوف قديم من أن تفوح منها رائحة كريهة، وكانت المريضة مثبتة على تصور استي للجنسية.

كانت تخاف ليس فحسب احتمال اكتشاف ممارسات استنمائية استية للجنسية باكرة، وإنما كانت تخشى أيضاً من أن تفوح صبابتها الجنسية وهي صبابات تصطبغ بصبغة سادية خاصة ضد الصبيان. كانت تتخيلها في صورة خاصة عن اطلاق رائحة كريهة تجاههم.

وفوبيات المركبات التي ترجع الى كبت الاحاسيس الشبقية للاتزان والفضاء تتصل بشكل قاطع بمرض بدني وهو دوار البحر.

فالاستثمارات النمائية التي تبعها احاسيس الاتزان بطريقة فيزيائية بحتة إنما تشبه بشكل بارز احاسيس القلق وهذه الاستثمارات يمكن أن تكون اثناء الطفولة قد ارتبطت «بالاستثارة الجنسية المسرفة» ومن ثم فالعصاب ودوار البحر يمكن أن يؤثر الواحد في الآخر.

وربما كان مرضى «السكلوستروفوبيا» أو الأعصبة المماثلة أكثر قابلية من غيرهم لدوار البحر ويمكن لحالة عارضة من دوار البحر عند شخص غير عصابي حتى الآن باعثة ذكريات.

مشهد بدائي:

وهناك أيضاً هستيريات تبدين هي تطوير لفوبيات المركبات بمعنى أن القلق يخلي مكانه للقيء او الدوار بوصفها اشباقاً فيزيائياً لاحاسيس اتزان مرهوبة، وهناك أيضاً «كلوستروفوبيات» تنصب على الزمان أكثر منها على المكان، فبعض المرضى يعيشون الخوف من أن ليس لديهم وقت ومن أنهم دائماً منحبسون في مهامهم وهو شعور يطحنهم على نحو ما تفعل احاسيس المكان عند مرضى السكلوستروفوبيا، بل وينطوي أيضاً على نفس الدلالة السيكولوجية وهناك آخرون يخافون من (رحابة الوقت) منهم يتدافعون من نشاط الى نشاط لأن الفراغ الزمني بغير نشاط يعني بالنسبة اليهم نفس ما يعنيه خواء المكان عند مرضى الاجورافوبيا.

إن النكوص في هستيريا القلق كما هو في كل الهستيريات، إنما هو نكوص محدود، فالغواية الاساسية التي يتحتم كبتها تتمثل في رغبات العقدة الاوديبية الانسالية والرغبات الذكرية ومخاوف الخصاء يمكن أن تختفي في صورة قبل انسالية ومع ذلك فهناك ايضاً حالات يكون فيها الاساسي قبل الانسالي بارزاً في الصدارة.

وفي بعض الحالات يلعب الدفاع ضد الغوايات العدوانية الدور الحاسم. إن هستيريا القلق حين تنفجر يتبعها في الأغلب ظهور فوبيا بمعنى تجنب الموقف أو المدركات المثيرة للقلق، وأحياناً يكون من الممكن في الواقع تجنب القلق باستحداث فوبيا ملائمة تدفع الأنا ثمنها بالحد من حريتها، عندئذ قد يبلغ المريض الى نقطة ميتة حيث يكون الخطر الغريزي قد تحول عليه وبنجاح الى خطر خارجي.

لكن في حالات اخرى لا يكون التطور مواتياً على هذا النحو، ففي مراحله الأولى يمكن أن يتعقد العصاب بعصاب صدمي ثانوي تسببه نوبة القلق الأولى التي يعيشها الشخص صدمة. والكثير من هستيريات القلق تولد ابتداءً من مثل هذه الصدمة خوفاً من القلق وتولد في نفس الوقت استعداداً للخوف لأتفه الاسباب، مما قد يخلق حلقة مفرغة. وبعض الفوبيات لا تنجح في محاولاتها للاسقاط فتمضي مستفحلة في غوها، ويغدو الاسقاط غير كافٍ والاسباب المولدة للفوبيات يتسع

مداها، فمثلاً لا يستطيع المريض في البداية أن يخترق من ميدانٍ معين، ثم يصبح بعد ذلك عاجزاً عن الخروج الى الطريق، واخيراً قد يبلغ به الامر الى ان يعجز عن الخروج من غرفته.

واسقاط الشخص لهياجه قد ينجح احياناً بمعنى أن المريض يتخلص من بعض ضروب قلقه وتململه واحاسيسه الحس حركيه وذلك متى توفرت شروط معينة تمثل اسقاطات لهذه المشاعر.

إن الفوبيات وهي تجنب المواقف المثيرة ليست الوسيلة الوحيدة التي بها تواجه الأنا القلق، فوسائل دفاع أخرى ضد القلق من قبل تشبيق القلق وتخويف الاخرين والتطابق مع الموضوعات المرهوبة وحشد المطمئنات الخارجية كلها ايضاً تستخدم في هستيريا القلق.

علاج التحليل النفسي لهستيريا القلق:

تعتبر هستيريا القلق بصورة عامة من الحالات الملائمة تماماً للتحليل النفسي اللهم إلاّ في بعض حالات خاصة لا ينصح فيها بالتحليل. فالقدرة على الطرح ممتازة، ومع ذلك فان الحالات التي تكشف عن اعراض قهرية وتسند بدرجة أكبر الى صراعات قبل انسالية وعدوانية تعد أقل انفتاحاً لإمكانية التحليل.

ولقد نبه فرويد الى تعديل ضروري في تكنيك التحليل في الفوبيات النمطية.

فبعدما يصل التحليل الى تفكيك بنية العصاب بدرجة كافية يتحتم على المحلل أن يتدخل ايجابياً ليستحث المريض على القيام بالخطوات الأولى للتغلب على الفوبيا.

يتحتم على المحلل أن يحمل المريض على أن يعرض نفسه للمواقف المرهوبة حتى يبرز في الضوء صراعه العصابي على قوته.

أعصبة العضو..

ليست كل تغيرات بدنية نفسية الأصل، هي تبدنيات لأنها ليست كلها ترجمان لآخابيل نوعية الى لغة البدن فالاتجاهات الغريزية اللاشعورية يمكن أيضاً أن تؤثر فسيولوجياً في الوظائف العضوية دون أن يكون للتغيرات أية دلالة سيكولوجية محددة. وهذا الفارق على الرغم انه جد بسيط لا يحظى دائماً بالانتباه.

إن التحليل النفسي انتهى تماماً لأن يسلم ولأن ينزل في الواقع منزلة البديهة بأن ليس كل اضطراب وظيفي للابصار هو بالضرورة من أصل نفسي فالعضو الذي يخدم عرضين عندما يتخطى دوره المولد للشبق فمن المنتظر بصفة عامة أن ذلك لا يحدث بغير تغيرات تنال العضو في استجابته للمثير، وفي تعصيبه مما يترجم في اضطرابات في وظيفة العضو كخادم للأنا وفي الواقع فإننا عندما نلاحظ عضواً يخدم في العادة غرض الادراك الحسي ويمثل في سلوكه نتيجة اسرافه في دوره المولد للشبق فيسبب تغيرات سمية في ذلك العضو ولهذين النوعين من الاضطرابات الوظيفية.

فاضطرابات الابصار النفسية الأصل نادراً ما تحدث بغير اضطرابات عصابية، ولو أن هذه الاخيرة يمكن بكل تأكيد أن تحدث دون الأولى.

ويبين مجال الاضطرابات العضو الناشئة عن اسباب ميكانيكية وفيزيائية وكيميائية ومجال التبدين يمتد حقل فسيح من التغيرات الوظيفية بل التشريحية التي يصدق عليها عصاب العضو.

ولقد أكد فرويد أن كل الأعصبة تتكشف في نهاية الامر عن أنها أمراض عضوية، ومع ذلك فإن هذه الدعامة العضوية للعصاب النفسي المتوسط هي افتراضية

بحتة، بينما بعض الاعراض الفيزيائية للوجدانات «اللاشعورية المختلفة» هي اليوم في متناول البحث.

ومن المحتمل أن الوجدانات اللاشعورية تتسبب من الناحيتين الكمية والكيفية في انسكابات متباينة للهرمونات فتؤثر بهذه الطريقة على الجهاز العصبي النمائي وعلى الوظائف الفيزيائية.

فسلوك الشخص يتأثر دوماً بحاجاته الغريزية الشعورية واللاشعورية مثال بسيط فنحنحة قهرية (لتسليك الزور) وإذا ما استمرت عادتها اسابيع وشهور تؤدي الى تجفيف الحلق ويمكن بالتالي أن تؤدي الى التهاب البلعوم وكذلك اعتياد النوم والفم مفتوح يؤدي الى جفاف الحلق، يمكن أن يسبب التهاب البلعوم وثمة ضروب عديدة من السلوك يمكن أن تتسبب في نزلات برد عادية.

إن الاتجاهات الناجمة عن صراعات غريزية لا شعورية يمكن بالطبع أن تؤثر على الوظائف الهرمونية. ومن ثم تولد بصفة ثانوية اعراضاً بدنية ليست مقصودة لذاتها. هذا النوع من التأثير هو نفسه الذي تمارسه رغبة لا شعورية على افراز العصارة المعدية في حالات القرحة الهضمية المستديرة في المعدة (قرحة المعدة) وهذا المثال في التحليل النفسي عبارة عن نتاج فيزيائي لاتجاه لا شعوري هو قرحة المعدة فالاشخاص اصحاب هذا الاتجاه الفمي الاستقبالي الملح والمحبط بشكل مزمن الذين كبتوا هذا الاتجاه والذين غالباً ما يكشفون عن سلوك شديد الايجابية من نمط التكوين المضاد هم بصورة لا شعورية وبشكل دائم «جياع للحب» وبالادق تعبيراً «جياع للامدادات النرجسية الضرورية» وكلمة جياع في هذا المقام يجب أن تؤخذ بحرفيتها وهذا الجوع الدائم يجعلهم يتصرفون كما يتصرف الجياع.

إن هذا السبب المولد للمرض لا يصدق على جميع الحالات «القرحة في المعدة» احياناً يكون الأمر خاضعاً لعوامل بدنية صرفة.

ومن اليسير أن نفهم التهاب القولون، يمكن أن ينتج عن حفزات أستية لا شعورية دائبة الفاعلية على نحو شبيه بالطريقة التي بها تنتج افرازات العصارات المعدية عن مطالب فمية لا شعورية.

مثل هذا الالتهاب القولوني هو النتيجة المترتبة على معاناة الكائن العضوي بشكل مزمن لالحاح لاستبعاد والحاح الاحتجاز مثلما تكون القرحة النتيجة المترتبة على الحاح استقبالي مزمن.

والأطفال الذين يميلون الى تأجيل تبرزهم «أما بسبب لذة الاحتجاز أو بسبب الخوف»، غالباً ما يظهر عندهم فيما بعد امساك شيديد، فالاحتجاز الذي كان ارادياً في البداية قد أصبح عرضاً عصاب عضو... ويمتد الامر في عصاب العضو الى الجهاز التنفسي والعضلي والقلب والجهاز الدوري وضغط الدم وكذلك الجلد حيث انه منطقة شبقية هامة وليس كل عرض عضوي حيث يستطيع التحليل أن يثبت ارتباطه بدلالات نفسية هو بالضرورة من طبيعة عصابية عضوية فما من شيء يحدث في الكائن العضوي إلا ويتكامل بصفة ثانوية في الصراعات النفسية للفرد.

الحصـــار والقهـــر:

في الأعصبة النفسية يغدو تحكم الأنا غير كاف نسبياً في اعراض التبدين. الأنا ببساطة تتعطل فتحدث افعالاً لم تقصد اليها الأنا إما في القهور والاحصرة فإن تحكم الأنا في الحركة لم يتغير ولكن الأنا لا تشعر أنها حرة في استخدام قوة التحكم هذه فعليها أن تستخدمها انطباعاً لامر غريب صادر عن عميل اكثر قوة يناقض حكم الأنا.

فالأنا فكرة على ان تحذف اشياء بعينها والا فإنها تستشعر تهديدات باخطار مروعة.

وأحياناً ما يكون تحول الفوبيا الى حصار للملاحظة بشكل مباشر فأولاً بعض المواقف يتم تجنبها ثم يبذل انتباه دائم لضمان التجنب لا اللازم، ثم بعد ذلك يتخذ هذا الانتباه طابعاً حصارياً او ينشأ اتجاه حصاري ايجابي آخر هو من التناقض مع الموقف المرهوب في الأصل. بحيث يضمن التجنب فمثلاً طقوس اللمس تحل محل التابوات وقهور الاغتسال تحل محل مخاوف القذارة والطقوس الاجتماعية وطقوس كالنوم تحل محل مخاوف الدخول في النوم وطرائق قهرية في معاملة الحيوانات والعجزة تحل محل فوبيات مناظرة وعلى ذلك فإن القهور هي احصرة ما تزال تعاش في صورة اندفاعات، والقهور ايضاً مشتقات كذلك شدتها تعبر عن شدة الحفزات المكبوتة.

وهناك حالات ينحصر فيها تحريف الحفزة الغريزية في مجرد تغير لهذا الالحاح الغريزي الى الحاح قهري وليست الافكار الحصرية حول الافعال المحارمية أو افعال القتل النادرة تبدو هذه الافكار عارية عن طابعها كرغبات غريزية ومنسلخة عن كيوناتها الانفعالية النوعية، والمرضى الذين يحاولون بيان كيف أن هذه الافكار المرعبة لا يعيشونها كرغبات غالباً ما يقولون إن الافكار القهرية من هذا القبيل تتركهم «بادرين» ومثل هذه الاحصرة ليست غير نوعاً ضد المخاوفية مثال ذلك حالة مريض كان لديه اهتمام حصاري بالملاحة والرياضة المائية مما كان نتاج خوف طفلي من تدفق ماء السيفون، وخوف الاماكن العالية يمكن أن تحل محله حفزة حصارية للقفز الى اسفل.

ومثال آخر مريض كان يعاني من خوف قوامه انه قد يوحي انطباع بأنه مثلي الجنسية، كانت تستولي عليه الفكرة الحصارية التالية كلما تعرف على رجل لم يسبق له أن عرفه «مع هذا الرجل يمكنني أن أمارس جماعاً مثلي الجنسية» ولم يكن يشعر بأي اثارة جنسية أو حفزة اندفاعية، وكان تماماً على غير وعي بأن فكرته الحصارية تعبر عن رغبته، وهناك احصرة وقهور اخرى ليست تعبيراً فيما يبدو عن حفزة غريزية محرفة، بل هي كما سبق القول توكيد وضمان لقوى الدفاع والقهر، يمكن وصفه بأنه امر يصدر من الداخل وفكرة تلقي الأمر تتأصل في خبرات الطفل الذين كان من المعتاد أن يأمروه وخاصة في ثقافتنا في خبراته مع الأب وفي القهور يأمر هذا الأب من الداخل والأب الداخلي الممثل وهو ما يسمى الأنا الأعلى وهكذا ففي تكون الاعراض القهرية تلعب الأنا العليا دوراً يختلف عن دورها في التبدين وهنا يبدو أننا قد بلغنا الى حقيقتين متناقضتين الأولى هي ما قررناه من أن ظاهرة القهر هي تحريف لإلحاحات غريزية. وأما الآن فتبدو وكأنها مشتقات أوامر صدرت يوماً عن الأب استبعاداً لمطالب غريزية.

ومن الواضح في بعض الحالات أن القهور تترجم عن اوامر الأنا العليا فمريض بقهر الاغتسال اذ يستشعر الأمر «اذهب واغتسل» إنما يكرر ببساطة ما سمعه مرة وهو طفل وليس من المهم أن الاباء قد اعطوا هذا الامر في الواقع من اجل النظافة البدنية بينما يستخدمه العصابي القهري دفاعاً ضد «الافكار القذرة» لأن

المريض وهو طفل كان يشعر بأن الابوين لو عرفا افكاره القذرة لامراه ان يغتسل.

ويصدق نفس الأمر على القهور التي لا يستشعرها المريض في صورة اوامر موجبة بل بالأحرى في صورة تهديدات فأفكار المريض الحصارية تدور حول ما يمكن أن يقع لو أنه استسلم للغواية.

وبينما بعض الاعراض القهرية هي اساليب محرفة في ادراك المطالب الغريزية وبعضها الاخر ترجمان عن تهديدات مضادة للغريزة من الأنا العليا فهناك اعراض اخرى أيضاً تعبر في وضوح من الصراع بين الامرين فمعظم اعراض الشك الحصاري يمكن ان تنسحب عليها هذه الصيغة. هل بوسعي أن اكون خبيثاً أم يتحتم علي أن أكون طيباً؟ واحياناً ما يشتمل العرض على طورين...

الواحد يمثل الحفزة المستهجنة والاخر يمثل الدفاع ضدها.

وأحياناً ما يكون من الممكن ان نلاحظ في مسار عصابي قهري كيف أن العرض يمكن ان تتغير دلالته فالعرض الذي كان في البداية تعبيراً عن الدفاع يمكن ان يصبح اكثر فاكثر تعبيراً عن عودة الحفزة الاصلية... والمرضى الذين يتحتم أن يتأكدوا المرة تلو المرة انهم قد اغلقوا صنبور الغاز غالباً ما يجدون انفسهم مضطرين الى لمس الصنبور من جديد بحيث ان الفعل الذي كان القصد منه وراء الخطر يمكن في واقع الأمر ان يجعل به.

فالطقوس القهرية عادة تمثل صورة غليظة «كاريكاتيرية» للاستنماء مغرض ليس له في الظاهر اية صلة بالاستنماء واحياناً يكشف عن هذه الصلة عند تحليله.

مريضة كانت مجبرة على العد من خمسة الى ستة كلما ادارت صنبوراً او حتى مرت امامه كان يهيمن عليها تماماً حسد القضيب ومن ثم كان من المتوقع أن عرضاً يتعلق بصنبور الماء ومن الممكن ان يكون له ارتباطاً ما يحسد القضيب عندها وبالفعل تذكرت بأن امها قد هددتها مرة واصبعها مصاب بأن قالت لها ان اصبعها ينبغي قطعه.

ومن ثم ينبغي تأويل فعلها الطقسي على النحو التالي.. إن رؤية الصنبور القضيب «كانت ترغم المريضة على ان تقنع نفسها بأن اصابعها ليس اربعة بل خمسة او ستة اصابع وفي مرحلة لاحقة من التحليل اتضح بأن فعلها الطقسي هذا

كانت له علاقة اوثق بالاستنماء، كانت عادتها أن تستنمي بأن تضع اصبعها امام عضوها بحيث ينساب البول على طول الاصبع وكأنه قضيب وغالباً ما يتبين أن العقدة الأوديبية هي محور الحفزات المكبوتة، بل احياناً ما يتبين ذلك من الفحص السطحي، الأمر الذي يجعل الكبت في الهستيريا مستحيلاً تماماً.

حيث أن في الهستيريا تبقى الافكار المكبوتة بغير تعديل الأوديبية هي الاساس ايضاً في الاعراض القهرية فإن ذلك يصدق ايضاً على الاعصبة القهرية، ولكن بالاضافة الى العقدة الأوديبية ها هنا تمت حفزات استية وسادية جداً قوية ترجع بأصلها الى المرحلة السابقة.

تعمل عملها دائماً وتتعرض للحرب دائماً.

إن الوجهة الغريزية الأستية السادية عند العصابي القهري من اليسير كقاعدة عامة تبينها في اللوحة الاكلينيكية متى اتجه الانتباه اليها وبصورة عامة فإن العصابيين القهريين ينشغلون بشكل واضح بين العدوانية والاذعان وبين القسوة والشفقة وبين الفوضى والنظام، وهذه الصراعات يمكن ان تترجم في المظهر الخارجي وفي السلوك الصريح بينما دائماً ما تلقى الاسئلة المنصبة على الحياة الجنسية. هذه الاجابة المتميزة بقدر ما يبدو لي كل شيء يمضي بنظام لانها معزولة عن مضمونها السيكولوجي، ولكن الافراغ الفسيولوجي في الانشطة الجنسية للمرض ليس بالافراغ الكافي للتوتر الجنسي وهذا التوتر الجنسي يعبر عن نفسه حقاً في افكارهم حول القسوة او القذارة واحياناً ما تكشف الوجهة الاستية السادية عن نفسها في صورة تكوينات ضدية ليس غير من قبيل الشفقة التعويضية المسرفة وحاسة العدالة المسرفة او النظافة المسرفة وعدم القدرة على أي عدوان والتدقيق المسرف في الرسميات في كل ما يتصل بالمال واخلاط من التكوينات الضدية والتفجرات المباشرة والاستية والسادية يمكن أن تجعل سلوك المريض يبدو متناقضاً فالمرضى هم في نفس الوقت منظمون، ومع ذلك يتسمون بالفوضى نظيفون، ومع ذلك قذرون شفوقون وقساة. وفي التحليل تغدو بالطبع الوجهة الاستية السادية عند العصابيين القهريين اكثر وضوحاً من ذلك فقد اوضح فرويد أن كل العصابيين القهريين لديهم طقوس برازية خبيثة» هي جزئيات العاب شبقية استية وهي جزئياً...

تكوينـات ضدية ازاء هذه الألعاب وهي جزئياً الأمران معاً:

كما أوضح فرويد إن الانتظام الغريزي عند العصابي القهري مماثل للانتظام الغريزي عند طفل في المرحلة الأستية السادية من النمو، ويبدو هذا متناقضاً مع الملاحظة النمطية التي قوامها أن العصابيين القهريين منشبكون في نضال دفاعي ضد العقدة الأوديبية.

وهذه لا يمكن بلوغ ذروتها قبل المرحلة الذكرية وثمة تناقض آخر ظاهر ينحصر في أن الكثير من القهور على الرغم من الاستية السادية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاستنماء الانسالي:

ونظريه فرويد القائلة بأن النكوص الى المستوى الاستي السادي يشكل حجر الزاوية في بناء العصاب القهري يمكن أن تفسر كثرة من الوقائع التي تبدو وبغير ذلك متناقضة.

وعلى الرغم من أن صراعات العصابي القهري هي اكثر استدخال من صراعات الهستيري الا أن العصابيين القهريين يحاولون استخدام الموضوعات الخارجية حلاً أو تهدئة لصراعاتهم الداخلية.

والهستريين الذين يخافون الانخصاء او فقدان الحب قد يحاولون التأثير بشكل مباشر على من حولهم كيما يضعوهم بالعدول عن فعل ما يخافونه منهم. اما العصابي القهري وهو الذي يخاف اكثر من فقدان حماية أناه العليا ومن اجباره على احتقار نفسه فانه يحتاج الى الاخرين كوسيلة غير مباشرة للحصول على التخفف فما من شيء تقوله أو تفعله الموضوعات الخارجية الا ويكون النظر اليه على انه أما غفران او اتهام. وتتم محاولات عديدة واقعية او سحرية للتأثير على شهادة هؤلاء «الشهود» فاحياناً ما يحاول المريض جر الموضوعات الى مجرد ابداء علامات التعاطف واحياناً ما يتوقع المريض من الموضوعات عدم فعل مالا يجتري هو نفسه على فعله لأن ذلك يمكن ان يخلق غواية مسرفة الشدة. إن مشاعر الاثم تسبب للعصابيين القهريين قدراً كثيراً من المعاناة فالمرضى يدخلون في حلقة مفرغة لا تنفك تتسع: ندم - تفكير - انتهاكات جديدة - ندم جديد - ويميل العصابي القهري الى استحداث ازاحات اكثر فأكثر والى توسيع مجال اعراضه «على نحو يشبه واجهة الفوبيا» والى زيادة الدلالة الغريزية لاعراضه زيادة يدفع ثمنها زيادة في دلالاتها العقوبية.

الاكتئاب والهوس:

الاكتئاب وتقرير الذات:

إن فهم الاعصبة الاندفاعية والادمانات يزودنا بالاساس الضروري لدراسة اكثر ميكانيزمات تكوين الاعراض انتشاراً، وايضاً أكثرها إبهاماً، ونعني ميكانيزم الاكتئاب في درجته الطفيفة يحدث الاكتئاب في كل عصاب تقريباً «على الأقل في صورة مشاعر دونية عصابية» وفي درجته العالية يشكل الاكتئاب أشنع عرض في الحالة الذهانية المضنية السوداوية «الملانخوليا». والاكتئاب يستند الى نفس الاستعداد الذي تستند اليه الادمانات والاندفاعات المرضية.

فالشخص المثبت على الحالة التي كان فيها تنظيم تقديره لذاته يعتمد على الامدادات الخارجية او الشخص الذي تدفعه مشاعر آثمة الى النكوص الى هذه الحالة يحتاج بشكل دائم وحيوي الى هذه الامدادات إنه يمضي حياته في حالة من الشره الدائم.

وأساليب الاستعطاف غالباً ما تتكشف بالتحليل على أنها في نفس الوقت أساليب للتمرد فالقرابين والصلاة، وهي الأساليب الكلاسيكية للاستعطاف غالباً ما تعتبر نوعاً من العنف السحري يستخدم لاكراه الآلهة على اعطاء المطلوب، وكثرة من الاتجاهات الاكتئابية هي على درجة الدقة تكثيفات من هذا القبيل للاستعطاف والعدوانية.

هؤلاء الأشخاص في حاجتهم المستمرة الى الامدادات التي تزودهم بالاشباع الجنسي وترفع عندهم تقرير الذات في نفس الوقت هم مدمنون حب عاجزون عن ان يحبوا ايجابياً. انهم في سبيله يحتاجون لأن يشعروا أن الاخرين يحبونهم وهم بالاضافة الى ذلك يتميزون بتبعيتهم ونمطهم النرجسي في انتقاء الموضوع، فعلاقاتهم مع الموضوع تختلط بها ملامح من التطابق وهم يميلون كثيراً الى تغير الموضوعات لأن ما من موضوع يقتدر على تزويدهم بالاشباع الضروري، فهم يتطلبون من جانب موضوعاتهم سلوكاً يسمح لهم او يشجعهم على المشاركة بأن يمكنهم من الشعور بالاتحاد مع الرفيق ودون اقامة أي اعتبار لمشاعر اقرانهم فإنهم

يتطلبون منهم تفهماً لمشاعرهم هم فهم عاكفون أبداً على اقامة «تفاهم طيب مع الاخرين وان كانوا عاجزين عن الاضطلاع بنصيبهم في مثل هذا التفاهم وحاجتهم هذه ترغمهم على ان يحاولوا انكار استعدادهم الماثل دائماً للاستجابة في عدوانية...

فالاكتئاب الشديد يمثل الحالة التي تنتاب الفرد ذا التبعية الفمية حين تنعدم الامدادات الحيوية. أما الاكتئاب الهين فهو استباق لهذه الحالة لاغراض تحذيرية.

ففي أعقاب الفترة الطويلة من الحرمان والاحباط تغلب على كل فرد البلادة والبطىء والتلكوء واللامبالاة، وواضح أنه حتى الأسوياء من الأشخاص يحتاجون قدراً معيناً من الامدادات النرجسية، فإن توقفت هذه الامدادات كلية، فإنهم يجدون أنفسهم في مواقف صغار السن من الأطفال الذين لا يحظون برعاية كافية وهذه الاكتئابات البسيطة وثمة حالات انتقالية بين الاكتئابات من هذا النوع وبين النكوصات الى الحالة السلبية من الاشباع الهلوسي للرغبة حيث ما من مطالب تتجه بعد الى العالم الخارجي وحيث الأنا تخلي مكانها لوجود ثمائي سلبي عديم الموضوعات، كما هو الحال في بعض الحالات الكثاتونية.

والاكتئابات العصابية هي محاولات يائسة لاكراه موضوع على التزود بالامدادات الضرورية بشكل حيوي بينما الاكتئابات الذهانية يكون فيها الفقدان الواقعي المكتمل قد تحقق بالفعل، فنتيجة المحاولات التنظيمية (لتقدير الذات) الى الأنا العليا ليس غير.

ومع ذلك فليس هذا بفارق مطلق، ففي الاكتئابات العصابية أيضاً نجد أن مشاعر الأثم وخوف الانهجار من جانب الأنا العليا يلعبان دوراً هاماً، فالحب في الموضوعات الخارجية تكون الحاجة اليه عندئذ بهدف معادلة تأثير الأنا العليا القائمة بالاتهام وكذلك في الاكتئابات الذهانية، حيث يجري الصراع على مستوى نرجسي فإننا نجد تناقض العاطفة ازاء الموضوعات الخارجية ما يزال قائماً يمكن تبينه.

الفميـة في الاكتئـاب:

إن الطابع قبل الانسالي لهؤلاء المرضى يكشف قبل كل شيء عن نفسه في وجهتهم الأستية، ووراء هذه الوجهة الأستية تظهر دائماً نزعات قاطعة من التثبيت الفمي. رفض العالم ليس أكثر الاعراض الاكلينيكية انتشاراً في السوداوية وحدها بل هو عرض ملازم لكل الكائنات وأحياناً يتناوب هذا العرض مع البوليميا. إن الاخابيل النمنمية يمكن التثبت من وجودها في السوداوية وفي أشكال الاكتئاب الاقل شدة حيث يمكن ملاحظتها في الاحلام او كدلالة لا شعورية لعرض أو آخر.

فمرضى الاكتئاب كثيراً ما يعودون الى الانشطة الشبقية الفمية من طفولتهم، فمثلاً: مص الابهام، ويكشف الاكتئابيون عن سمات فمية عديدة في شخصيتهم.

والأفكار اللاشعورية للاكتئابيين وأفكارهم الشعورية أيضاً في كثير من الحالات تعد بأخابيل التهام أشخاص او أجزاء من أشخاص. والاطفال يكشفون بشكل شائع بدرجة كافية عن اعتقادهم انفعالياً في امكانية أن يأكلوا شخصاً، وبامكانية أن يأكلهم شخص وذلك حتى بعد وقت طويل من رفضهم لهذه الفكرة عقلياً. الفمية الاستقبالية بمعنى الكلمة تمضي جنباً الى جنب مع شبقية جلدية استقبالية، أي مع صبابة الى الدفء المطمئن.

مريضة تعاني من قلق شديد لم تكن تستطيع الذهاب الى فراشها ليلاً لعجزها عن تحقيق الارتخاء الضروري، ولأنها كانت لا شعورياً تعتبر عدم ذهابها الى الفراش وسيلة لاكراه القدر على اشباع حاجاتها من الامدادات، لكنها رتبت امرها بحيث تحقق راحة وارتخاء نسبيين بفعلين بديلي حب.

- كانت تحتسي الخمر.
- كانت تجلس على المدفئة وتستمتع بدفئها.

وأهداف الإدماج أيضاً تشكل فارقاً بين الأستية التي تلتقي في الاكتئاب والأستية عند العصابيين القهريين، فالأستية عند الاكتئابي لا تحاول الابقاء على موضوعاتها فهي تستهدف بالأحرى الادماج حتى ولو تحتم تدمير الموضوع خدمة لهذا الهدف.

ومن الواضح أن النكوص الى هذه المرحلة الأستية الأبكر هو خطوة حاسمة، فالفقدان الجزئي للموضوعات المميزة لهذه المرحلة يتحرر المريض من كل قيد فينكص الليبيدو عنده بشكل اوضح الى الفمية والنرجسية.

الحداد والاكتئاب:

قارن فرويد بين الاكتئاب والظاهرة السوية المتصلة به وهي الحداد، فالطفل عند فقدانه موضوعاً فإن الاستثمارات الليبيدية التي تحررت من الموضوع تغمره، ويمكن أن تولد عنده الذعر، وفي الحزن تعلم الراشد السيطرة على هذا الاجتياح بتأجيل العملية الضرورية، عملية تحرير الاستثمارات، فالرابطة مع الموضوع المفقود تتمثل في مئات من الذكريات المنفصلة، وكل ذكرى من هذه الذكريات يجري فصلها وفكها من الرابطة على انفراد، وهذا ما يستغرق وقتاً. وقد اطلق فرويد على هذه العملية (عمل الحداد) وانجاز ذلك عملية غير سارة ومهمة صعبة. يحاول الكثير من الاشخاص الامعان في تأجيلها بالتثبيت بوهم أن الشخص المفقود ما يزال حياً وبذلك يؤجلون هذا العمل الضروري والانعدام الواضح للانتقال عند أصحاب الحداد يمكن أيضاً أن يكون راجعاً الى تطابق مع الشخص الميت والوهم بأن الشخص الفقيد ما يزال حياً والتطابق معه أمران وثيقا الصلة فكل صاحب الحداد يحاول تبسيط مهمته باقامته نوعاً من الموضوع البديل داخل نفسه بعد رحيل الموضوع الواقعي ومن اجل ذلك فإنه يستخدم نفس الميكانيزم الذي يستخدمه كل الخائبة أمالهم بما فيهم الاكتئابيون.

ونعني النكوص من الحب الى الادماج، ومن العلاقة مع الموضوع الى التطابق، وغالباً ما يكون من الممكن ان يتشبه صاحب الحداد بالمفقود في حركاته وتصرفاته، فعلى سبيل المثال قد يتشبه بالمفقود بالامراض، فإذا مرض بالذبحة الصدرية ومات على أثرها قد يظهر على المتشبه نفس الاعراض وهذا يكون ادعاء منه ليس إلا.

وكل ذلك يدعم صيغة فرويد (من الممكن جداً أن يكون التطابق هو الشرط العام الذي تحته تتخلى «الهي» من موضوعاتها).

والتطابق مع الميت ينطوي أيضاً على دلالة عقوبية «ما دمت قد رغبت في موت الشخص الآخر فيتحتم عليك أن تموت أنت نفسك». في هذه الحالة يخاف صاحب الحداد وقد أنزل الموت عن طريق القدرة المطلقة لرغبته في أن يموت الآخر من ان هذا الشخص الميت قد يحاول الثأر فيعود لقتله هي الحي.

وهذا الخوف من الميت يزيد بدوره من تناقض العاطفة ويحاول صاحب الحداد تهدئة الميت واهالة التراب على قبره أو اقامة ضريح حجري، كلها ترجع الى الاجراءات الاولية القصد منها هو منع الميت من ان يعود، وبصورة عامة فإن الحداد هو استئناس لوجدان بافراغ العنف الأول الذي يتميز بالخوف وتدمير الذات والذي نراه في الحداد عند البدائيين الدفاع ضد الوجدانيات وتأجيل الوجدانيات.

وعلى هذا يمكن القول بأن الحداد يتميز باستدخال متناقض العاطفة للموضوع الفقيد وباستمرار تجاه الموضوع المستدخل للمشاعر التي كانت يوماً تتجه الى الموضوع وباسهام مشاعر الإثم في العملية كلها.



الفصل السادس

حالات من التحليل النفسي



(حالات من التحليل النفسي)

(الأحلام والهستيريا)

١) حالة دورا...

من اجل الوصول الى فهم العمليات النفسية في الهستيريا والأعصبة النفسية الأخرى تستخدم الدراسة العميقة لمشكلات الاحلام.

حيث أن التفسير الصحيح والعلمي والتحليلي للأحلام يدخل في تاريخ العلاج ضمن نسيج واحد لسد فجوات في الذاكرة وفهم الاعراض.

وبالنسبة الى حالة دورا، نجد أن الاضطرابات الهستيرية توجد في الدخائل الحميمة للحياة النفسجنسية للمرضى، وأن الاعراض الهستيرية هي التعبير عن رغباتهم المكبوتة الأمعن سرية.

فعندئذ يتحتم على العرض المكتمل لحالة هستيريا أن ينطوي على كشف لهذه الدخائل الحميمة وفضح لهذه الاسرار[١].

وأن هذه الحالة انتظمت حول حلمين (أحدهما جاءت روايته في منتصف العلاج والآخر في نهايته)، والصيغة اللفظية لهذين الحلمين قد تم تدوينها عقب الجلسة مباشرة مما جعلها محوراً أكيداً لسلسلة التأويلات والذكريات المنبعثة عنهما.

وإن تفسير الاحلام الذي يعتبر له دور عظيم في العمل التحليلي ذلك لأن

---

(١) خمس حالات من التحليل النفسي / تأليف فرويد / ترجمة د. صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق تقديم ومراجعة مصطفى زيعور / مكتبة الانجلو القاهرة ص ٣٠، ٣١.

تفسير الحلم من الطرق التي يمكن أن نسلكها الى الشعور واللاشعور حول المواد النفسية المتضمنة لهما وكذلك الحلم هو واحد من المنعطفات التي يمكن بها تفادي الكبت، وكذلك واحد من الوسائل الرئيسية التي تستخدم فيما يعرف بالاسلوب غير المباشر للوصول الى اللاشعور، وتلزمنا طبيعة الوقائع التي تشكل مادة التحليل النفسي أن نبذل جهداً بالبحث في تواريخ الحياة التي ندرسها والظروف الانسانية والاجتماعية الصرفة لمرضانا بقدر ما نبذل من اهتمام بالمعطيات البدنية وبالاعراض المرضية، وكذلك نتيجة اهتمامنا الى ظروفهم العائلية.

الحـالــــة:

فتاة اسمها دورا بدأت تظهر عندها منذ عامها الثامن أعراض عصابية. فقد اعتراها في ذلك الوقت ضيق في التنفس مزمن مع نوبات بين حين وحين، وكان العرض اثناءها يستفحل جداً، وحدث الظهور الأول لهذا العرض عقب نزهة قصيرة في الجبل، ومن ثم نسبته الى الانهاك الزائد، وخلال ستة أشهر كانت ملزمة بالراحة وموضع عناية فائقة انحسر عنها المرض.

وقد اجتازت الفتاة الصغيرة الامراض المعدية المألوفة للطفولة دون أن يخلف ذلك عندها أي ضرر، وعندما بلغت الثانية عشر تقريباً بدأت تعاني من صداع نصفي، واختفى عندما بلغت السادسة عشر.

وعندما بلغت الثامنة عشر حضرت الى العلاج بعد أن وصلت الحالة بها الى سعل مستمر مع فقدان تام للقوى.

تدور احداث الحالة في فيينا وباشراف تام من قبل عالم التحليل النفسي «فرويد». كانت الفتاة تنطق ملامحها بالذكاء والجاذبية وتعتبر مصدر نكد شديد لابويها والاعراض الاساسية لحالتها هو الاكتئاب العصابي، واضطراب الشخصية، وكان واضحاً انها لم تكن راضية عن نفسها ولا عن عائلتها، وكان اتجاهها نحو والدها غير ودي، وكانت علاقتها شديدة السوء بوالدتها، وكانت تتجنب العلاقات الاجتماعية والحالة في مجملها «حالة هستيرية صغرى». ويختص بالحالة كذلك رجل وزوجته يرمز اليه بالسيد «ك» ومدام «ك» وعلينا أن نتطرق للوضع الاجتماعي

الذي يربطهما مع بعض، فكانت مدام «ك» تربطها مع دورا علاقة صداقة واحترام مشاعر متبادل وعلاقة الرجل بزوجته علاقة تعيسة، وعلى الرغم من ذلك كانت تكره عائلة السيد «ك» كراهية لا توصف مما اجبرها على ابلاغ والدها بذلك، مصرة أن يقطع والدها علاقته مع هذه العائلة تماماً وعلى الأخص بمدام «ك» التي كانت تمثل بؤرة قلق وظنون غير مريحة بالنسبة الى دورا، حيث أن والد دورا ينظر الى هذه المرأة نظرات تكاد تكون اشبه بنظرات العاشقين الى من يعشقون.

إن التجربة مع السيد «ك» في مغازلته لها وما ينطوي عليه ذلك من حرج لشرفها تشكل على ما يبدو الصدمة النفسية في حالة دورا، مما أدى الى اضطراب هستيري لها.

فعندما تم التغلب على الصعوبات الأولى في العلاج. حدث مع السيد «ك» ذات يوم بأنه رتب لقاء لدورا مع زوجته لحضور موكب ديني في منطقة (ب)، ولكنه أقنع زوجته بالبقاء في البيت وصرف مساعديه في العمل حتى وصلت الفتاة ووجدته بمفرده.

وعندما حاول أن يخرج من الباب الخلفي للمنزل الذي رتب فيه اللقاء لمشاهدة الموكب الديني وعلى غفلة من الفتاة ضمها الى صدره وقبلها على شفتيها وكان على هذا الموقف أن يأخذ شكله الطبيعي في أن يصيب الفتاة بلحظة من الهياج الجنسي عندها، وخاصة هي في الرابعة عشر من العمر ولم يسبق لها أن اقترب منها رجل، ولكنها اعتراها شعور عارم من الاشمئزاز فانتزعت نفسها بشدة متخلصة من الرجل وتجاوزته مهرولة خارج المنزل ومع ذلك استمرت باللقاء مع السيد «ك» واحتفظت بالأمر سراً، ولكنها تجنبت أن تتلقى منه أي موعد يكونا بمفردهما أو أن تلتقي به في مكان منعزل، وإن هذا الموقف الذي نجم من خلال القبلة التي تركت لديها طابع الاشمئزاز يعد دليلاً كاملاً على أن حالتها حالة هستيرية تامة لأن من علاقاتها الواضحة أن يترك الفعل الجنسي لدى الشخص شعوراً بالاشمئزاز.

وهذا الحال يقع ضمن ميكانزميات الدفاع المسمى ميكاتيزم «انقلاب

الوجدان» وكذلك يصحبه ميكانيزم «النقل» أي نقل الاحساس السار من القبلة الى احساس غير سار يصاحبه الاشمئزاز، وقد اتضح الأمر بأنها تشعر بالألم في منطقة صدرها وبطنها حيث لامست صدر وبطن السيد «ك» ويكون الأمر هنا قد دخل بصورة هلوسة حسية تعاود الظهور من حين لأخر.

ويمكن أن نعيد بناء المشهد على النحو التالي:

أنها وهي بين أحضان الرجل المتلهف على تقبيلها قد أحست ليس على شفتيها بالقبلة، بل أيضاً على بدنها بضغط عضوه المنتصب، فكان هذا الاحساس صادقاً لها فأنطرد من ذاكرتها وانكبت في اللاشعور. وحل محله هذا الاحساس البريء وهو الشعور بالضغط على صدرها وهو احساس يؤدي بشدته المسرفة الى كبت الحفزة الاصلية. ومرة أخرى من جديد تجد «نقلاً» من الجزء السفلي للبدن الى جزئه العلوي، وهذا الأمر جعلها تشعر بالضيق والاشمئزاز، عندما يصادفها رجل وامرأة جالسين في هدوء يتبادلان الحب بالهمسات والكلمات الدافئة فكانت تنظر اليهما نظرة كلها تحقير واشمئزاز. وعند التحليل النفسي لحالتها اتضح بأنها لا ترغب بالمرور امام رجل ينتابه هيجان جنسي، وهنا كان (النقل) الذي تحدثنا عنه سابقاً قد اكد لديها هذا الشعور.

ونحن هنا امام ثلاثة اعراض تنتاب الفتاة.

١ ـ الاشمئزاز.

٢ ـ الاحساس بالضغط على الجزء العلوي من البدن.

٣ ـ تجنب الرجال المنهمكين في حديث عاطفي.

وكل هذه الأعراض ترجع الى حادثة واحدة.

١ ـ فالاشمئزاز هو العرض المناظر لكبت المنطقة الشبقية الفمية، وهذه الحالة لقيت في طفولة دورا تسامحاً في صورة عادة (المص) من أجل اللذة.

٢ ـ ضغط القضيب المنتصب يحتمل أن يكون قد أدى الى تغير مماثل في العضو الأنثوي المناظر «البظر» وإثارة هذه المنطقة الشبقية الثانية قد أدت عن طريق عملية «النقل» الى الضغط المصاحب على الصدر حيث ثبتت هناك.

٣ ـ وتجنبها للرجال الذين يحتمل أن يكونوا في حالة هياج جنسي يتبع ميكاتيزم رهاب «فوبيا»، فهدفه حمايتها ضد أي بعث جديد للادراك المكبوت.

وبخصوص السعال الحاد الذي كان يصيب دورا فمرجعه الى الظنون التي كانت تعتريها من أن علاقة والدها بمدام «ك» علاقة غير مرضية ويسودها الطابع الجنسي تماماً من خلال احداث وقصص سردتها تبين بالدليل القاطع أن والدها كان على علاقة جنسية بمدام «ك»، وحتى الاحداث قد اجبرت دورا على أن تظن بأن ما حدث مع السيد «ك» عندما قبلها أن الأمر ما هو إلا نظام مقايضة جنسية واتفاق ضمني بين والدها والسيد «ك» حتى يتسنى لوالدها اشباع رغباته مع مدام «ك». وسرعان ما سنحت فرصة لتفسير سعال دورا العصبي بهذه الطريقة، أي بالرجوع الى موقف جنسي اخيولي. فلقد عادت تلح من جديد على أن مدام «ك» لم تكن تحب اباها إلا لأنه كان رجل لديه قدرة جنسية لا يتمتع بها السيد «ك» بل لأنه كان يغدق عليها بالأموال والهدايا الثمينة والعلاقة هي علاقة عشق متبادلة.

ولقد دعمت هذه الفكرة لديها بتصريحها أنها على علم بأنه يوجد أكثر من طريقة للحصول على الاشباع الجنسي ليس فقط بالايلاج باستخدام العضو التناسلي، ولكن تمتد العملية الى استخدام البدن كله مكان عشق وشبق ومداعبة وقبلات والى آخره للحصول على المتعة الجنسية.

وإن لسعالها التشنجي الذي كان يصيبها مرجعه الى المعرفة بأن الممارسة الجنسية باستخدام الفم هو الذي كان سببا في التهاب حلقها مسبباً السعال الشديد وكله يرجع الى العشق المبتادل بين والدها والسيدة «ك» الذي كان يشغل ذهنها والذي يتم بالتأكيد عن طريق الفم، حيث والدها لا قدة جنسية لديه وأن هذه التحاليل النفسية للاشخاص المصابين تظهر بوضوح عند الاشخاص الهستيريين وكل العصابيين هم أشخاص لديم بشكل جد بارز نزعات انحرافية تعرضت للكبت أثناء نومهم فغدت لا شعورية ومن هنا فإن أخاييلهم اللاشعورية تكشف على وجه التحديد عن نفس المضمون الذي تكشف عنه الافعال الواقعية التي سجلتها الدراسات عند المنحرفين.

ومن هنا ليس هناك ما يبعث على العجب في أن فتاتنا الهستيرية ذات التسعة عشر عاماً قد سبق لها أن سمعت عن استخدام (مص القضيب) كأسلوب من أساليب الاتصال الجنسي، مما أجبرها على استحداث أخيولة لا شعورية من هذا القبيل، وترجمت عندها بتهيج حلقها بسعالها. ولقد اعتبرنا هذا الأمر هو الاجدر بالملاحظة دون سواه لانها قد ذكرت بأنها كانت صاحبة عادة (مص الابهام) ولا أحد يمكن أن يجادل في أن الغشاء المخاطي للشفتين والفم ينبغي اعتباره منطقة شبقية أولية بالنظر الى أنها تظل تحتفظ بهذه الدلالة الباكرة في فعل التقبيل. وهكذا فأن النشاط الغريزي لهذه المنطقة الشبقية في سن باكرة يحتم الظهور اللاحق لمهاودة بدنية في مجرى الغشاء المخاطي الذي يبدأ من الشفتين.

إن هذه السلسلة من الافكار يمكن أن نصفها بأنها قاهرة، وقد تتسم بالتعزيز أو إنها افكار متسلطة، وهي تكشف عن طابعها المرضي على الرغم من مضمونها المعقول في الظاهر ومهما بلغا هذه السلسلة من الافكار القهرية يمكن في نهاية الأمر التحكم فيها.

ـ أحـــلام دورا ـ

لقد كانت دورا ترى باستمرار حلمين يتكرران بصورة مطابقة تماماً من حين الى آخر.

... الحلم الأول... كما روته دورا...

«منزل كان يحترق وكان أبي واقفاً بجوار سريري وايقظني وارتديت ملابسي على عجل، أرادت أمي أن تتوقف لتنقذ علبة حليها، ولكن أبي قال «إني ارفض أن أدع نفسي وطفلي نحترق من أجل علبة حليك، وهرولنا نازلين على السلم، وما ان صرت في الخارج حتى استيقظت».

ويجدر القول إن الحلم كان حلماً متكرراً.

ـ الحلم كان نتيجة مباشرة لتجربة دورا مع السيد «ك».

ـ رؤية أبيها في الحلم يقف بجانبها هو نفس المشهد الذي وجدت فيه السيد «ك» يقف بجوارها عندما استلقت على الاريكة بعد عودتها من نزهة على شاطىء البحيرة، وهذه الحالة جعلتها تحترس عندما تريد أن تنام في الغرفة التي تشارك فيها السيده «ك»، وفي اليوم التالي للحادثة التي وقف فيها السيد «ك» بجوارها أصبحت لا تستطيع أن تغلق باب الغرفة على نفسها حتى يتسنى لها أن ترتدي ملابسها، وكانت ترتديها بسرعة وهذه السرعة في ارتداء الملابس حتى لا يفاجئها السيد «ك» وهي عارية، حيث أن والدها كان يخرج من الفندق لنزهة وتصحبه كالعادة مدام «ك» ويبقى السيد «ك» وحيداً في الفندق مما يتيح له المجال في الذهاب اليها في أي وقت يشاء، وإن السرعة في ارتداء الملابس يكمن في عدم حصولها على المفتاح

لتغلق به على نفسها حيث أن الغرفة ليس لها مفتاح آخر، مما يجبرها على ارتداء ملابسها بسرعة. وكان بها من خلال التحليل والتفسير للحلم بقولها بأنها لن تعرف الراحة ولن تذوق النوم الهادىء إلا بعد أن اصير خارج البيت. وفي حكاية الحلم انقلبت الصورة في الآتي (وما أن صرت في الخارج حتى استيقظت).

وبالنسبة الى علبة الحلى التي ارادت أمها أن تنقذها؟ فتجيب دورا أن أمها شديدة الولع بالحلي، وكان لديها الكثير مما قدمه أبوها لها، وللعلم بأن السيد «ك» قد اهدى الى دورا علبة حلى غالية الثمن، ويمكن تفسير الأمر على النحو التالي وذلك من خلال التحليل (إن هذا الرجل وهو يعني السيد «ك» إنه يريد أن يدخل غرفتي عنوة وعلبة حلي في الغرفة وهي ستكون في خطر إذا حدث أي شيء فالغلطة هنا غلطة أبي).

وهنا جاء الحلم بالضد، فالمسبب للخطر والذي يكونهُ الأب أصبح منقذاً من الخطر. وفي هذا الجزء من الحلم كل شيء مقلوب الى الضد.

ودخول والدتها الى الحلم كما سألت دورا فسره التحليل بأن الوالدة هي العزيمة الاولى في حب الفتاة لأبيها.

ونعود الى علبة الحلى وبما أن السيد «ك» قد قدم سابقاً علبة حلى غالية الثمن، فمن ثم يكون على دورا أن تقدم اليه علبة حلى غالية الثمن بالمقابل، وماذا تكون ماهية علبة حليك «دورا» سوى ما أنت تخافين عليه من أن يسرق منك السيد «ك» وهو عذريتك حيث أن الجهاز التناسلي للمرأة في المنام واستناداً الى الرمزية فهو يرمز اليه بأنه كل شيء دائري أو قابل للاستدارة أو كل شيء مجوف قابل للاحتواء، وعلبة الحلى ينطبق عليها هذا الرمز.

وهنا يكشف عن حبك العميق للسيد «ك».

وبالنسبة الى الحريق فابناء عم دورا شديدوا الولع باللعب بالثقاب والخوف من لعبهم بالنار هو تبللهم بالماء حيث أن الماء هو الذي يستطيع ان يطفىء النار.

إذن إنه الخوف لتبللهم لفراشهم إن هم لعبوا بالنار والتضاد ما بين الماء والنار لا بد وان يكون الاساس لهذا الاعتقاد.

وعلى هذا فخوفاً من تبليل الأطفال لفراشهم يجب ايقاظهم من النوم، وهذا ما حدث مع والد دورا عندما ايقظها من النوم وبما إن الحلم يحمل الضد في تفسيره فيكون الأب بدلاً من السيد «ك» في ايقاظ دورا من الحلم والذي أيقظ دورا في الواقع من نومها عندما كانت راجعة من النزهة عند البحيرة في منطقة (ل).

وبالنسبة لتبليل الفراش فقد كان أخوها يبلل فراشه حتى سن السادسة، وهذا ما قاله والدها (لست مستعداً أن يهلك اطفالي مقابل حصولك على علبة حليك).

وأما رائحة الدخان فلقد اسندتها دورا الى أن والدها والسيد «ك» يدخنان السجائر حتى هي قد لف لها السيد «ك» لفافة دخان ودخنتها على شاطىء البحيرة وإن ما حدث على شاطىء البحيرة في محاولة السيد «ك» أن ينال منها قبلة فهي تكون من فم شخص مدخن تفوح منها رائحة الدخان وهي الرائحة التي اشتمتها دورا في الحلم. وإن هذه القبلة قد سبقها قبلة أخرى وهي تلك التي حاول فيها السيد «ك» أن ينال الغواية منها بضمها الى صدره، وقد ابدلتها بمص الابهام وكبتت الموقف بالنقل الى مشاعر الإشمئزاز.

والأكيد في حالة دورا هو أن الحلم الذي حدث أثناء العلاج قد اكتسب دلالة جديدة ترتبط بالفترة الراهنة وإن كان المضمون الظاهري ربما لم يتغير.

فالأفكار الكامنة وراء الحلم تنطوي على إشارة لتقدم العلاج. والحلم هو بمثابة تجديد للتصميم القديم على الانسحاب من خطر، فلو أن ذاكراتها لم تخدعها عندما ذكرت أنها حتى في بلدة «ل» كانت تشم رائحة الدخان عقب استيقاظها فلا بد وأن نعترف بأنها دست ببراعة فائقة عبارتي (ما من دخان بغير نار) ضمن الصورة المكتملة للحلم.

الحلـم الثانـي

وبعد بضعة أسابيع من الحلم الأول وقع الحلم الثاني وروايته على لسان دورا كالآتي:

«كنت أتجول في مدينة لا أعرفها، رأيت شوارع وميادين غريبة علي، ثم دخلت في بيت كنت أسكن فيه، وذهبت الى غرفتي، فوجدت خطاباً من أمي ينتظرني هناك».

كتبت تقول: حيث أنني تركت البيت بغير علم أبوي، فإنها لم ترغب في أن تكتب الي لتخبرني بأن أبي كان مريضاً» الآن قد مات فلو شئت بوسعك أن تحضري، عندئذ ذهبت الى المحطة وسألت نحو مائة مرة أين المحطة؟ وكنت اتلقى دائماً الاجابة: «خمس دقائق» ثم رأيت أمامي غابة كثيفة، دخلت فيها وهناك سألت رجلاً قابلته فقال لي «ساعتان ونصف أيضاً» عرض علي أن يصحبني ولكني رفضت ومضيت بمفردي. رأيت المحطة امامي ولم استطع الوصول إليها وفي هذه اللحظة اعتراني شعور القلق المألوف الذي يعتري المرء في الأحلام حين لا يستطيع أن يخطو الى الأمام. ثم وجدتني في البيت ولا بد أني كنت فيما بين ذلك في حالة سفر، ولكني لا اعرف شيئاً عن ذلك، خطوت داخل مسكن البواب وسألت عن شقتنا، فتحت لي الخادمة الباب، وأجابتني أن أمي والآخرين في المدافن».

قبل الحلم بيوم واحد اخرجت من علبة لها تحتوي على كتاب صور لمدينة جميلة وكان هذا الكتاب المصور قد أهدي لها في عيد ميلادها. والمدينة الغريبة سبق لها أن تعرفت عليها من خلال زيارة الى مدينة في ضواحي فيينا هي «درسدن»

وكان برفقتها ابن عمها الذي أراد أن يطوف بها ليعرفها على معالم المدينة، ولكنها رفضت ومضت بمفردها. ومن ثم ذهبت الى محل لعرض الرسوم المصورة «معرض لوحات زيتية» كان مقام في تلك الفترة في المدينة وظلت تطوف بالصور وتتوقف أمام اللوحات التي تروق لها ووقفت ساعتين امام صورة «العذراء» في نشوة حالمة من الاعجاب الصامت.

وما من شك في أن هذه التداعيات كانت تنتمي في الواقع الى المادة التي كونت الحلم.

وإن الرسوم في المعرض كانت نقطة وصل في شبكة افكار الحلم عندها (الرسوم في كتاب الصور الذي أهدي اليها والرسوم في معرض درسدن). ونود هنا أن نوضح أن دورا قد تعرفت على شاب مهندس في بلدة المصنع في منطقة «ب» وكان التعارف سريعاً، وذهب الشاب المهندس الى المانيا حتى يتسنى له فرصة لتحقيق أحلام المستقبل بصورة أسرع وأفضل، وقد نال اعجاب دورا بهذا المهندس، وكانت ملامح المهندس قد تركت لدى دورا أماني جميلة وكان المهندس كل فترة وأخرى يرسل إليها بالرسائل حتى لا يفقد صورته لديها، وأن لا يفقد شخصه رغم قصر الفترة التي تمت بينهما وكان يأمل الشاب من خلال المراسلة أن يدوم بينهما التذكر حتى استطاع أن يتزوجها لاحقاً اذا سمحت الظروف بذلك، وإن هذه الاماني التي كان يتمناها الشاب هي ضمن الحسبان لدى دورا[١].

ويتضح هذا الأمر جلياً في الجزء الأول من الحلم هو أنها كانت تتوحد مع هذا الشاب حيث أنه كان يتجول في مكان غريب عليه وكان يجاهد للوصول الى هدف، ولكن الصعوبات كانت تعترضه، وكان في حاجة الى الصبر، وكان عليه أن ينتظر فلو أنها كانت في هذا كله تفكر في المهندس الشاب لكان من الملائم أن يكون الهدف امتلاكه لإمرأة بدلاً من امتلاكها هي.

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٨.

ولكن بدلاً من ذلك كان الهدف هو محطة ولهذا فإن العلاقة بين السؤال في الحلم وبين سؤال دورا في واقع الحياة يخولنا الحق في أن نضع «علبة» مكان «محطة» «علبة وامرأة» مفهومان يتواكبان فعلاً بشكل افضل.

سألت نحو مائة مرة... قبل الحلم بيوم واحد وفي الليل تحديداً طلب والد دورا منها أن تحضر له الكونياك حتى يجرع كأساً وينام، لأن هذا من عادته فطلبت من أمها مفتاح البوفيه الذي يحوي الكونياك، فكانت أمها مستغرقة في حديث مع احدى صديقاتها مما دفع دورا أن تصرخ بصوت مرتفع قائلة: «لقد سألتك مائة مرة اين المفتاح ولم تجيبني».

اذن أين المفتاح؟ وأين العلبة؟ هما في التحليل رمزان الى عضوي التناسل لدى الذكر والأنثى.

مضمون الخطاب / كان في السابق وقبل أحداث الحلم الأول أن قامت دورا بكتابة خطاب قصدت أن تتركه الى والديها وخصوصاً والدها مهددة فيه بأنها ستقدم على الانتحار أو أن يترك والدها مدام «ك» في حال سبيلها أي يبتعد وينهي العلاقة الشائنة بينهما.

وهنا يكون الأمر عبارة عن اخيولة انتقام موجهة الى أبيها، وجاء الحلم بالضد فمات والدها.

وأن مرض أبيها قبل وفاته وغضبه الشديد، وحزنه الكبير عليها قد حقق لها فرصة الانتقام وتركها للمنزل وذهابها الى مدينة لا تعرفها وتمشي بين الغرباء فيها دليلاً على الوحدة التي كانت دورا قد حاصرت نفسها فيها وهذه الحالة تحقق رغبة الى دورا في أن تمنع والدها من رؤيتها مع علمها المسبق بأن والدها لا يطيق المنزل دون وجودها فيه.

«لو شئت أن تحضري» هي صورة استفهامية سبق أن كتبتها مدام «ك» تدعو فيها دورا لزيارة منطقة «ل» عند شاطىء البحيرة.

والغابة في الحلم كانت تشبه الغابة الموجودة عند شاطىء البحيرة تماماً، وكذلك قبل الحلم بيوم قد رأت نفس شكل الغابة في الرسومات التي كانت موجودة في داخل الكتاب.

وبعد التحليل التام للحلمين شفيت تماماً دورا مما كان قد اصابها، ومضت السنون بعد زيارتها الاخيرة تلك، وأثناء ذلك تزوجت الفتاة وتحديداً من ذلك الشاب المهندس الذي هاجر الى المانيا لتحقيق مستقبلاً أفضل من فيينا.

ذلك الشاب الذي ورد في تداعيتها في بداية تحليل الحلم الثاني، وكما أن الجزء الأول كان يمثل نخولها عن الرجل الذي تحبه الى أبيها أي هروبها من الحياة الى المرض، فكذلك ان الحلم الثاني يعلن أنها توشك أن تنتزع نفسها متحررة من أبيها لتستردها الحياة من جديد[1].

(١) المصدر نفسه ص ١٥١، ١٥٩.

ملاحظات من التحليل النفسي على سيرة ذاتية

«لحالة بارانويا»

«جنون برانوى»

«الرئيس شريبر»

مقدمة:

إن البحث التحليلي للبارانويا ما كان ليكون ممكناً على الاطلاق لولا لم يكن لدى هؤلاء المرضى انفسهم هذه الخاصية من فضح على التحديد. وأن يكون ذلك في شكل محرف لتلك الأشياء التي يحتفظ بها العصابيون الآخرون أسرار خبيئة، وحيث أن مرضى البارانويا لا يمكن الزامهم بالتغلب على مقاومتهم الداخلية، وحيث أنهم على أي حال لا يقولون إلا ما يشاؤون فأنه يترتب على ذلك أن تكون على وجه التحديد بصدد اضطراب يمكن فيه لتقرير مكتوب أو لسيرة ذاتية منشورة أن تقوم مقام التعامل الشخصي مع المريض ولهذا السبب فانه لمن الشرعية اقامة تأويلات تحليلية استناداً الى تاريخ حياة المريض الذي يعاني البارانويا أو على وجه الدقة الجنون البرانوي.

والحالة مأخوذة مما كتبه المريض عن نفسه[1].

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٧.

تاريخ الحالـة:

بدأ المرض الأول للدكتور شريبر في خريف عام ١٨٨٤ م ومع نهاية عام ١٨٨٥ كان قد شفي منه تماماً، وأثناء هذه الفترة قضى ستة أشهر في عيادة الدكتور «فلخسج» وفي تقرير رسمي دونه في وقت لاحق وصف هذا الاضطراب على أنه نوبة «هيبوكوندريا» خطيرة.

ويؤكد لنا الدكتور شريبر أن ذلك المريض قد مضى في مساره دون أن تحدث أية ظواهر تقترب به من مجال الخوارق.

وليس في تقرير المريض عن نفسه ولا في تقارير اطبائه عن ما تقدم لنا من معلومات كافية عن تاريخه السابق أو عن ظروفه الشخصية، بل إن هذه التقارير لا يتضح منها عمر المريض وقت مرضه.

وإن كان المنصب القضائي الرفيع الذي بلغ اليه قبل مرضه الثاني يشير الى حد أدنى من السن لهذا المنصب.

ويتضح لنا أن الدكتور شريبر كان قد تزوج منذ وقت طويل قبل مرضه بالهبوكوندريا، فقد كتب «بل أن امتنان زوجتي ربما كان اكثر عمقاً فقد كانت تبجل العلامة فلخسج بوصفه الرجل الذي انقذ لها زوجها ومن ثم فلقد ظلت طوال سنوات محتفظة بصورته فوق مكتبها».

وكتب في نفس الموضع «بعد شفائي من مرضي الأول قضيت مع زوجتي ثمانية أعوام كانت على وجه العموم سنوات غامرة حافلة بالتكريم الاجتماعي فلم يكن يعكر صفوها الا الخيبات المتكرررة لأملنا في أن نسعد بانجاب أطفال».

وفي يونيو من عام ١٨٩٣ بلغته بشرى تعيينه عما قريب رئيساً لمحكمة الاستئناف العليا وتولى مهمام منصبه الجديد في اول اكتوبر من نفس العام، وفيما بين هذين التاريخين رأى بعض الاحلام ولو انه لم يولها أي اهتمام إلا في وقت لاحق حلم مرتين أو ثلاث مرات بأن اضطرابه العصبي القديم قد عاوده وقد اشقاه ذلك الحلم بقدر ما أسعده عند اليقظة عندما تبين أن الامر لم يكن غير حلم.

وبدأ المرض الثاني في نهاية اكتوبر عام ١٨٩٣ بأرق شديد أضناه، وقد ارغمه ذلك على أن يعود الى عيادة الاستاذ الدكتور فلخسج.

وفي بداية اقامته هناك في عيادة الدكتور (فلخسج بليبرج) كان يعاني بصفة أساسية من افكار هيبوكوندريه (توهم المرض). كان يشكو من لين ينال منه وانه سوف يموت عما قريب، وهكذا ولكن كانت اللوحة الاكلينيكية بالفعل افكار اضطهاد تستند الى خداعات حسية وإن كانت في البداية لا تظهر على ما يبدو والا متباعدة بينما لوحظت في نفس الوقت درجة عالية من الحساسية الزائدة للضوء والضوضاء، وفميا بعد غدت الخداعات البصرية والسمعية اكثر تواتراً بكثير وفي ارتباط باضطرابات في الحس العام استولت على كل مشاعره وافكاره.

ويمكننا أن نضيف بأنه كان يصب لعناته على اناس معينين يعتقد أنهم يضطهدونه ويلحقون به الأذى. وكان أبرز هؤلاء الناس طبيبه السابق فلخسج الذي كان يطلق عليه (قاتل الروح). وكان من عادته أن يصيح مرات ومرات لا حصر لها (فلخسج الصغير) ضاغطاً بشدة على كلمة الصغير.

ولقد كان الأمر واضحاً كل الوضوح في اللوحة الاكلينيكية لمريضنا هذا «الرئيس شريبر» كان يعاني من جنوناً هلوسياً ومن ناحية اخرى قد اقام نسقاً هذائياً بارعاً في اعتقاداته بأنه منوط برسالة لتخليص العالم ويعيد اليه الفردوس المفقود، ولكن ما كان ليستطيع ذلك ما لم يتحول أولاً من رجل الى امرأة.

وهذه العملية يمكن ان تستغرق عدداً من السنين أو حتى عشرات من السنين وذلك عن طريق معجزات الهية، وهذا ما يؤمن به ومن ثم فهو اعجب رجل عرفته الحياة قط على هذه الارض.

ففي كل ساعة وفي كل دقيقة طوال سنوات، كابد هذه المعجزات في بدنه، وقد أكدت هذه المعجزات عنده الاصوات التي كانت تتحدث اليه. فخلال السنوات الأولى من مرضه عانت بعض أعضاء بدنه من الاصابات المدمرة، والتي يمكن أن تؤدي حتماً الى هلاك أي شيئ آخر.

إن التقرير الطبي قد ألح على نقطتين هامتين بشكل اساسي:

١) ادعاء المريض دور المخلص.

٢) تحوله الى امرأة.

إن هذا المخلص هو اخيولة مألوفة من خلال تواترها كنواة للبارانويا الدينية. أما العامل الاضافي الذي يجعل الخلاص متوقفاً على تحول المريض أولاً الى امرأة فهو غير مألوف مع العلم إن مريضاً قد انتقلت أنثوته الى الصدارة بدلاً منها وهذا ينطوي على عملية تطور ربما تتطلب عشرات السنين إن لم تتطلب قروناً.

وإن انخصائه لا يمكن اعتباره إلا وسيلة لتحقيق تلك الغاية. وعلى الرغم من أن ذلك يمكن أن يصدق على هذائه في صورته النهائية الا أن تفحصي المذكرات يرغمنا على اتخاذ وجهة نظر في الموضوع مختلفة تماماً.

وكون اخيولة الانخصاء من طبيعة اولية وكونها في الأصل مستقلة عن فكرة المخلص فذلك ما يزداد رجحاته إذا ما تذكرنا الفكرة التي خطرت له سابقاً وهو بين النوم واليقظة والتي مؤداها أنه لا بد وأن يكون جداً لذيذ أن يكون امرأة تعاني فعل الجماع. وهذه الاخيولة ظهرت أبان حضانة مرضه وقبل أن يبدأ في الشعور بالاثار الناجمة عن الارهاق في مدينة (درسدن).

وشريبر نفسه يحدد شهر نوفمبر ١٨٩٥ م تاريخا للوقت الذي انعقدت فيه الصلة بين اخيولة الانخصاء وفكرة المخلص ومن ثم تمهد له الطريق لان يتصالح.

مع تلك الاخيولة كتب يقول: والآن علي أي حال أصبحت على وعي تام بأن نظام الكون يقتضي حتماً أن يكون انخصائي سيان رغبت في ذلك شخصياً أو رغبت عنه وبأن ما من سبيل معقول ينفتح امامي إلا أن اصلح نفسي مع فكرة التحول الى امرأة والنتيجة التي تترتب على انخصائي لا يمكن بالطبع الا أن تكون هي أن اخصابي بالاشعة الالهية بغية خلق جنس جديد من البشر.

إن الروح الشريرة تكمن في اعصاب البدن وهذه الاعصاب ينبغي تصورها على أنها بنيات مرهقة الى حد عجيب اشبه ما تكون بأدق الخيوط، بعض هذه الأعصاب تقتصر وظيفتها على استقبال الانطباعات الحسية بينما بعضها الاخر وتعني «أعصاب الفهم» تضطلع بكل وظائف العقل. وفي هذا الصدد ينبغي أن نتنبه

الى أن كل عصب واحد من أعصاب الفهم تمثل فردية الشخص العقلية بكلتيها والى أن وجود عدد أكبر أو أقل من أعصاب الفهم ليس له من تأثير الفهم الا بالنسبة الى طول الفترة التي يستطيع خلالها العقل أن يحتفظ بانطباعاته. وبينما يتكون البشر من ابدان واعصاب فان الله بحكم طبيعته ذاتها ليس غير عصب ولكن أعصاب الله ليست كما هو الحال في الاعصاب البشرية محدودة في عددها، بل هي لا نهائية أو ابدية إنها تملك كل خصائص الأعصاب البشرية ولكن بدرجة زائدة بشكل هائل وهي تستطيع أن تتحول الى أي شيء يمكن تصوره في عالم الخليقة وتعرف بالاشعة.

وثمة علاقة بين الله والسماء ذات النجوم والشمس.

وبعد ما فرغ الله من عملية الخلق انسحب الى مسافة هائلة تاركاً العالم على وجه العموم لقوانينه الخاصة واقتصر نشاطه على أن يجتذب اليه ارواح الموتى ولم يحدث إلا في حالات استثنائية إن شاء الاتصال بأشخاص من صفوة الموهبين أو إن شاء التدخل عن طريق المعجزة في تاريخ العالم.

فالاتصال المنتظم بين الله والأرواح البشرية لا يتم بحسب نظام الكون الا بعد الموت فعندما يموت انسان فإن اجزاءه الروحانية «المصابة تعاني عملية تطهير قبل أن يتم في نهاية الأمر اتحادها مع الله ذاته بحيث يكون مداخل السموات، وهكذا فإن كل شيء يتحرك في مدار أبدي والى هذا المدار يستند نظام الكون فالله في خلق لأي شيء يتنازل عن جزء من ذاته أو أن يلبس جزءاً من أعصابه شكلاً جديداً. والفقدان الظاهري الذي يناله الله من جراء ذلك يكون تعويضه بعد مئات وألاف من السنين، حين تندمج أعصاب الموتي الذين كتب لهم النعيم فتندمج من جديد في الله من حيث هو مداخل السموات.

إن حالة شريبر اتخذت في البداية صورة من هذاءات الاضطهاد ولم تبدأ في التجرد منها إلا عند النقطة الحرجة التي تغير فيها وجه المرض وقت المصالحة وبعد ذلك غدت الاضطهادات أيسر فايسر احتمالاً، وأخذ التلطيخ بالعار الذي كان في البداية الهدف من وراء تهديده بالانخصاء يخلي مكانه لهدف آخر في تناغم مع نظام الكون، ولكن المسئول الأول عن كل هذه الاضطهادات كان فلخسج وقد ظل هو المرض عليها طول فترة المرض كله.

وكان احد هذه التحولات أن حل محل فلخسج الوجه الأسمى لله بدا ذلك في البداية وكأنه علامة على استفحال الصراع واشتداد الاضطهاد الذي لا يطاق.

ولكن سرعان ما اتضح أن هذا التحول كان يمهد الطريق للتحول الثاني ومن ثم لفض الصراع. كان من المستحيل على شريبر أن يبلغ الى مصالحة نفسه مع دور أنثى بغي ازاء طبيبه، ولكن مهمته تزويد الله بما يتطلبه من احاسيس شهوية لم تكن لتستثير مثل هذه المقاومة من جانب اناه فالانخصاء لم يعد الا عاراً بل غدا متناغماً مع نظام الكون.

لقد وجد مكانه ضمن السياق الكلي للاحداث الكونية وكان الوسيلة الى اعادة خلق البشرية بعد انطفائها.

«أن جنساً بشرياً جديداً مولداً من روح شريبر».

سوف يمجدهُ يوماً بوصفه جدهم الأول هذا الرجل الذي يعتقد أنه ضحية الاضطهاد.

بهذه الطريقة تهيأ مخرجاً يتيح اشباعاً لكل من القوتين المتصارعتين، فأناه وجدت تعويضاً في جنون العظمة «الميجا لومانيا» بينما أخيولة رغبته الأنثوية تحقق لها الخروج الى النور وغدت مقبولة الآن بوسع الصراع والمرض أن ينتهيا وهذا يمكن أن يسمى «اشباع تقاربي للرغبة».

وأن كل ما يحدث في هذه الحالة يكون من الاعراض الرئيسية في البرانويا وتسمى غالباً بالاسقاط أي أنه ادراك داخلي يقمع وبدلاً منه فإن مضمونه بعد أن يعاني درجة معينة من التحريف يدخل الى الشعور في صورة ادراك خارجي.

في هذاءات الاضطهاد ينحصر التحريف في تبديل الوجدان فما كان ينبغي ادراكه داخلياً «حبا» يتم ادراكه خارجياً «كراهية» وأن هذه العملية العجيبة هي اعظم عناصر البرانويا(١).

---

(١) خمس حالات من التحليل النفسي ـ فرويد ـ ترجمة د. صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق ـ الجزء الثاني ـ مكتبة الانجلو المصرية ص ٦٣٣.

مقتطف من تاريخ عصاب طفلي

«رجل الذئاب»

١٩١٨

مقدمة:

تعد حالة «رجل الذئاب» من اروع الحالات من حيث عمق التحليل وبراعة فرويد في استقصاء المصادر اللاشعورية المتشابكة الضاربة بجذورها في أعماق الطبقات النفسية التي تمثل الانطباعات للشهور الأولى من الحياة تلك التي لا تستطيع الذاكرة أن تصل اليها من حيث أنها لم تكن قد ارتبطت بالكلام، فلا سبيل اليها الا من خلال الاحلام وخاصة الباكرة منها، ثم من انبثاقات من مستوى المتخيل التي تفصح عن نفسها في جزء من التورية والاضمار وما اليها أعني لغة الاعراض العصابية[١].

وبلغت خطورة عصاب هذا المرض حداً جعله لا يقوى على مواجهة أبسط متطلبات الحياة، ذلك العصاب الذي شفي منه المريض بعد علاج دام اربع سنوات وهذه الحالة تزودنا بما يلقي الضوء على صلات العصاب بالذهان، حيث أن المريض قد عانى أثنتي عشر سنة قبل شفائه من اعراض درج اطباء النفس على ادراجها في فئة الذهان.

---

(١) خمس حالات من التحليل النفسي ص ٦٥٨ المجلد الثاني د. زيعور.

الحالــة:

رجل شاب انهارت صحته في عامه الثامن عشر على أثر اصابته بالسيلان، وكان في حالة عجز تام وفي تبعية تامة ازاء الاخرين.

كان قد عاش حياة سوية خلال العشر سنوات الأولى من عمره التي سبقت اصابته بمرضه، وكان قد أنجز دراسته الثانوية دون عناء كبير، ولكن السنوات الأبكر من حياته كانت تسودها اضطرابات عصابية خطيرة تفجرت قبل عيد ميلاده الرابع مباشرة وفي صورة هستيريا حصر «فوبيا الحيوانات»، ثم تحولت الى عصاب قهري ذي مضمون ديني استمر عنده مع مشتقاته حتى عامه العاشر[1].

وعلى أي حال يمكن القول بأن تحليلات اعصبة الأطفال تنطوي بصفة خاصة على قيمة نظرية كبيرة، فهي تعيننا على أن نبلغ الى الفهم الصحيح لأعصبة الراشدين بنفس القدر الذي تعيننا به احلام الأطفال على أن نبلغ الى فهم احلام الراشدين وليس ذلك لأنها أكثر شفافية.

أو لأنها أفقر في عناصرها، فالواقع إن الصعوبة التي يجدها المحلل في أن يلتمس طريقه في الحياة النفسية للطفل تجعل من علاج الأعصبة الطفلية مهمة عسيرة بصفة خاصة بالنسبة اليه.

ومع ذلك فإن كثرة الرواسب التي تتراكم فيما بعد لا يكون لها وجود في هذه الأعصبة، ومن ثم فإن لب العصاب يثب الى العين بوضوح لا يخطئه أحد.

نظرة اجمالية عن بيئة المريض وتاريخ حالته:

تزوج ابواه في بكرة شبابهما وكانا ما يزالان يعيشان حياة زوجية سعيدة عندما ألقى اعتلال صحتهما بالظلال الأولى على هذه السعادة فبدأت أمه تعاني من اضطرابات بطنية، وبدأ أبوه يعاني من النوبات الأولى من اكتئابه.

هذه التي أدت الى تغيبه عن البيت ولم يبلغ مريضنا الى فهم مرض أبيه إلا بعد ذلك بوقت طويل، ولكنه كان على وعي باعتلال صحة امه حتى في طفولته

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٦٨.

الباكرة. وبسبب مرضها هذا لم تكن تنشغل بطفليها إلا بشكل ضئيل نسبياً، وذات يوم قبل عامه الرابع بكل تأكيد بينما كانت أمه تصحب الطبيب خارج بيتها وكان هو يسير بجانبها يمسك يديها سمعها وهي تشكو مرضها للطبيب، فتركت كلماتها انطباعاً عميقاً في نفسه. وفيما بعد استخدمها تعبيراً عن حالته، لم يكن طفلاً وحيداً بل كانت له أخت تكبره بعامين تقريباً متدفقة الحيوية بارزة المواهب «باكرة الشقاوة» لعبت دوراً هاماً في حياته.

كانت ترعاه امرأة عجوز «خادمة» من أصل ريفي وكان حبها له لا يعرف الكلل كان بالنسبة لها بديلاً عن ابنها الذي مات صغيراً، كانت الاسرة جميعها تعيش على ارضها في ضيعة ريفية، وكان من عادتها في الصيف أن ترحل عنها لتعيش في ضيعة اخرى، وكانت الضيعتان على مقربة من مدينة كبيرة.

وحدث تغير مفاجىء في طفولة مريضنا عندما باع ابواه البيتين في الضيعتين وانتقلا الى المدينة، وكان من عادة الاقارب الاقربين أن يقوموا بزيارات طويلة لهم في هذه الضيعة أو تلك ـ اعمامه ـ خالاته واطفالهم ـ وجداه لأمه، وكان من عادة ابواه اثناء الصيف أن يتغيبا لمدة اسابيع.

وفي ذكرى حاجبه يرى نفسه مع خادمته يشهدان العربة وهي تبتعد بأبيه وأمه وأخته ثم يعودان في هدؤ الى داخل البيت لا بد وأنه كان جسده صغيراً في ذلك الوقت، وفي الصيف التالي بقيت أخته في البيت وعهد الى مربية انجليزية بالاشراف على الطفلين.

كانت هذه المربية غريبة الاطوار ومشاكسة وتدمن الكحول، وعند عودة ابواه من الرحلة التي كان يقومان بها وجدا ابنهما غريب الاطوار بعد أن كان لطيف الحديث جذاب الملامح، وجداه مشاكس لدرجة أبدت الأم شكوكها من حالته، وخاصة عندما يثور بشكل هستيري عند اتفه الأسباب التي لا داعي بأن يثور لها الفرد.

فكانت أمه تنسب هذه التغيرات الى المربية الإنجليزية التي طردت لاحقاً، ولم يحدث أي تحسن على حالة الطفل.

ظل الصبي يحتفظ بهذه الذكريات التي يسميها «الرذالة» التي تفجرت لديه عندما كان يحتفل بعيد ميلاده، ولم يحصل على قدر مضاعف من الهدايا، ولقد بلغت مضايقته حداً لا يطاق، حتى وصل الأمر الى محبوبته المربية «نانيا» التي يحبها حباً عظيماً وهذه هي المربية الأولى وليست الانجليزية التي طردت.

ولكن الفترة التي عانى فيها هذا التغير في شخصيته كانت ترتبط في ذاكرته ارتباطاً وثيقاً بكثرة من الظواهر الأخرى الغريبة والباثولوجية التي لم يكن يستطيع أن يرتبها في تتابعها الزمني. وخصوصاً تلك التي عاناها في الضيعة الأولى قبل الخامسة من عمره وكان بوسعه أن يتذكر ما عانى في تلك الفترة من خوف عرفت اخته كيف تستغله لتعذبه.

ففي كتاب مصور كانت توجد فيه صورة ذئب منتصب على اقدامه بقدم ممدودة الى الامام. كان كلما وقع بصره على هذه الصورة يصرخ كالمجنون من الخوف، وكان يخاف من أن يأتي اليه الذئب ويأكله، ولكن اخته كانت تنجح دائماً في أن ترتب الأمر بحيث تقع عيناه على هذه الصورة، وكان رعبه يغمرها بالسرور. وفي نفس الوقت كان يرتعب من حيوانات اخرى كبيرة وصغيرة ووصل الامر به الى ان يخاف الفراشات حيث أنه في احدى المرات كان يطارد فراشة جميلة، وعندما حاول ان يصطادها اتضح له أن أطرافها مدببة فصرخ صراخاً كالمجنون، وكأن الأمر هو صورة الذئب، وكذلك وصل الامر الى الخوف من الخنافس.

وكانت الأحصنة هي الأخرى تثيره رعباً وفزعاً حتى في احدى المرات اضطر الى مغادرة السيرك عندما رأى حصاناً في السيرك من ضمن الالعاب. وهو يروي أنه كان شديد التقوى والورع، وقبل الذهاب الى النوم يصلي مرات عديدة وأن يرسم الصليب عدداً لا يحصى من المرات. وكان من عاداته في المساء أن يطوف بكل الصور المقدسة المعلقة في غرفته، وكان يحمل مقعداً يصعد عليه ويقبلها واحدة تلو الأخرى في خشوع.

وكذلك ان يفكر احياناً في أن يقرن اسم الله باسم الحيوانات أو أشياء

دينوية، وهذا تناقض فكري واضح، وهذا ما حصل مع الاحصنة التي يخاف منها، واحياناً يعتدي عليها بالضرب المبرح.

وفي رحلة له بمنتجع المانيا طرأت عليه فكرة غريبة تراوده وهو التفكير بالثالوث المقدس الذي يتذكره عندما كان يرى ثلاث كومات من روث الخيل أو من غائط آخر في عرض الطريق.

واحياناً كان يمارس طقوساً غريبة كلما رأى اناساً يستثيرون اشفاقه من قبيل المتسولين وذوي العاهات والشيوخ الطاعنين في السن.

فكان عليه أن يزفر الهواء بصوت مسموع حتى لا يحيق به مصيرهم، وفي ظروف أخرى بعينها كان يتحتم عليه أن يشهق الهواء بشدة.

وبالنسبة الى أبيه كان يحبه حباً عظيماً ويعطف عليه ٠لا يطيق البعد عنه ولو لأيام قليلة، وكان أيضاً يحب اللعب معه.

ومنذ سن باكرة كان الطفل فخوراً بأبيه وقرب نهاية طفولته دبَّ الفتور بينه وبين أبيه وكان والده لا يخفي حبه الشديد الى اخته التي تكبره بسنتين، وفيما بعد غدا خوفه من أبيه العامل المهين.

كل هذه الظواهر اختفت لاحقاً بفضل الارشاد والتعليم، وذلك في عامه الثامن.

الغـوايـة ونتائجهـا المباشـرة:

من اليسير أن نفهم أن نتيجة الاتهام الأول الى المربية، لأن التغير الذي طرأ على الصبي قد برز الى الوجود اثناء وجودها هناك، فثمة ذكريات حاجية بقيت عنده وهذه الذكريات متعلقة بالمربية، فذات مرة وكانت تسير في المقدمة قالت للناس الذين يسيرون في خلفها (تأملوا أذن ذئبي الصغير). وفي مرة أخرى كانت تركب عربة مع الطفلين طارت قبعتها عن رأسها، فأحدث ذلك سروراً عظيماً عندهما، وكان هذا كله يتجه بدلالته الى عقدة الخصاء، مما يسمح لنا أن نفترض بأن المربية نطقت بتهديد ضد الصبي، وكان هذا التهديد هو المسؤول الى حد كبير

عن سلوكه الشاذ، وثمة حادثة أخرى عندما كان جداً صغيراً في الضيعة الأولى اغوته أخته متأدية به الى ممارسات جنسية حضرته أولاً ذكرى بأن أخته قد عرضت عليه في المرحاض الذي كان من عادة الطفلين أن يذهبا اليه معاً.

وهذا الاقتراح هو أن يكشف كل منهما عن عضوه التناسلي للآخر، ثم اتبعت قولها هذا بالفعل وبعد ذلك برز الى الضوء الجانب الاساسي من الغواية بكل تفصيلاته من حيث الزمان والمكان.

وفي إحدى المرات بينما كان والديه مشغولان عنهما وكان الطفلان يلعبان على الأرض امسكت اخته بعضوه وراحت تلعب به وهي في الوقت ذاته كانت تقص عليه حكايات غير مفهومة عن محبوبته «نانيا» كما لو كان ذلك ايضاحاً لما تفعله.

وكان فعلها هذا يستند الى قولها بأن نانيا تفعل ذلك مع كل الناس، وخاصة مع البستاني، وهذا الافتراء على نانيا في نظر أخته يعطيها الحق لتفعل ذلك وتبرره مع أخيها أي تقنع أخيها بأن ما تفعله هو أمر طبيعي لا يثير الدهشة والاستغراب.

ولقد روى ابن عم له بأن اخته كانت وقحة وشهوية بدرجة كبيرة، فعندما كانت ما تزال طفلة في الرابعة أو الخامسة من العمر جلست مرة على ركبته وفتحت بنطلونه وأمسكت بعضوه.

فإذا ما تركنا الغواية جانباً فإن مريضنا كان يجد في اخته أثناء طفولته غريماً مزعجاً في محاولته البلوغ الى تقدير أبويه. وكان يشعر بانسحاق شديد من استعراضيتها في غير رحمة لتفوقها، وفيما بعد كان يحسدها بنوع خاص على ما تحظى به من التقدير الذي كان يبديه أبوها ازاء قدرتها العقلية وانجازها الفكري.

بينما كان هو يعاني من كف عقلي منذ عصابه القهري[1].

وعندما بلغا كلاهما سن المراهقة أصبحا أعز صديقين الواحد للاخر، وأثناء هياجه الجنسي العاصف في فترة البلوغ اجترىء على محاولة اقتراب بدني حميم

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٨٣.

معها وقد رفضته بشكل قاطع، وعندئذ تحول عنها دفعة واحدة الى فتاة ريفية صغيرة كانت تعمل خادمة في البيت، وكان اسمها هو نفس اسم اخته، وبتحوله هذا أنجز خطوة عميقة التأثير في اختياره للموضوع الجنسي لأن كل الفتيان التي وقع بعد ذلك في جبهته كن ايضاً خادمات.

إن الغواية التي عاناها أورثت جنسيته الهدف السلبي أن يتلقى اللمسات على قضيبه وسوف نبين الآن مع من حاول مريضنا أن يحقق هذا الهدف وأية مسارب أدت به الى هذا الاختيار، وانه لمن المؤكد أن نعرف بأن استطلاعاته الجنسية بدأت في أثر استثارته الجنسية الأولى، وانها لم تلبث أن تأدت به الى مشكلة الخصاء.

في ذلك الوقت استطاع ان يرى بنتين صغيرتين أخته وصديقة لها، بينما كانتا تتبولان، وكان من الممكن لفطنته أن تنادي به الى أن يتبين تماماً الوقائع الصحيحة في هذا المشهد، ولكنه تصرف كما يتصرف غالبية الاطفال الذكور في مثل هذه الظروف. ولقد رفض فكرة أن يكون ما يشهده توكيداً للجرح الذي هددته «نانيا» وفسر الأمر لنفسه بأن ما رآه كان الجهاز التناسلي للبنتين. ولكنه لم يتخلص بذلك من مسألة الخصاء. فكان يجد في كل ما يسمعه ما يشير من جديد الى الخصاء.

فذات مرة وكان الطفلان قد اشتريا أصابع ملونه من الحلوى قالت المربية وكان يغلب عليها الخيال المريضي بأن هذه الاصابع اجزاء من ثعابين مقطعة، وتذكر بعد ذلك أن أباه التقى مرة بثعبان وهو يسير في ممر مشاه فضربه بعصا وقطعه إرباً، وقد سمع قصة من قصص «رابينله فوخس» تقرأ بصوت مسموع عن ذئب اراد ان يخرج في الشتاء ليصطاد السمك واستخدم ذيله كطعم مما أدى الى انقطاع ذيله، وقد أطبق عليه الجليد كما عرف الاسماء المختلفة التي تطلق على الاجنة تبعاً لسلامة أو عدم سلامة اعضائها التناسلية، وهكذا كان مستلباً بأفكار تدور حول الخصاء، ولكنه كان ما يزال حتى ذلك الحين لا يثق في الخصاء، ولا يخاف منه، وبرزت لديه مشكلات جنسية اخرى من خلال الحكايات الخرافية التي عرفها في ذلك الوقت ففي ذات القبعة الصغيرة الحمراء وفي العنيزات السبع يتم اخراج الاطفال من بطن الذئب.

فهل الذئب إذن كائن أنثوي أو أن الرجال يمكن أيضاً ان يوجد الاطفال داخل اجسامهم؟ في ذلك الوقت لم تكن المسألة قد انحسمت بعد هذا الى أنه في وقت هذه الاستطلاعات لم يكن لديه بعد أي خوف من الذئاب.

وفي غياب والديه قال انه قد تخلى عن الاستنماء مباشرة بعدما كان من رفض نانيا وتهديدها وعليه فإن حياته الجنسية التي كانت قد بدأت تدخل تحت هيمنة المنطقة التناسلية قد وضحت امام عقبة خارجية فأدت بتأثير هذه العقبة الى مرحلة ابكر تنتمي الى الانتظام قبل الانسالي فنتيجة لكبح الصبي لاستنمائه اتخذت حياته الجنسية طابعاً شرجياً سادياً فأصبح سريع الهياج ولعاً بالتعذيب يستمد منه الاشباع على حساب الحيوانات والبشر.

وكان هذا النكوص الى الحيوانات بسبب رفض نانيا له بممارسة الجنس معها. فكان الانتقام لنفسه وكان في نفس الوقت يشبع شهوته الجنسية على نحو يتفق مع المرحلة النكوصية التي صار اليها.

بدأ يقسو على الحيوانات الصغيرة ويمسك الذباب ويقطع اجنحتها ويسحق الخنافس تحت قدميه، كما كان أيضاً في خياله ولعاً بضرب الحيوانات الكبيرة «الأحصنة» كانت كلها تلك تصرفات ايجابية سادية صرفة.

الحلم والمشهد البدائي:

«رأيت في الحلم أن الوقت ليل وأني أرقد في فراشي وكان سريري يستند الى اقدامه متجهاً الى النافذة، وكان هناك في مواجهة النافذة صف من أشجار الجوز العتيقة، أعرف في ذلك كان في الشتاء وأثناء الليل وفجأة انفتحت النافذة من تلقاء نفسها، وارتعبت اذ بضع ذئاب بيضاء جالسة فوق شجرة الجوز الكبيرة في مواجهة النافذة. كان هناك ستة أو سبعة منهن كانت الذئاب بيضاء تماماً، وكانت تشبه بالاحرى الثعالب أو كلاب الرعاة إذ كانت لها ذيول كبيرة كالثعالب. وكانت اذ انها منتصبة كالكلاب عندما تنتبه الى شيء، وفي رعبي الشديد بالطبع من أن تأكلني الذئاب صرخت واستيقظت، اسرعت خادمتي الى فراشي لترى ما حدث لي.

قضيت برهة طويلة تماماً قبل أن اقتنع إن الامر كان مجرد حلم، فقد كانت صورة النافذة وهي تنفتح والذئاب جالسة فوق الشجرة بالغة الوضوح تنبض بالحياة «وفي النهاية أخذت اهذي وشعرت وكأنني قد نجوت من خطر وعدت الى النوم من جديد.

كان المريض يربط دائماً هذا الحلم بذكرى مؤداها إن اخته كانت تعرض عليه صوراً للذئاب في كتاب صور خرافية، مما كان يفزعه جداً، وكانت هي تتلذذ لهذا الرعب الذي كان ينتابه.

لماذا كانت الذئاب بيضاء؟ ذكره ذلك بالخراف التي كانت توجد قطعان كثيرة منها في الضيعة، وكان أبوه يصطحبه بين حين وآخر لرؤية هذه القطعان التي يربيها. فكان في كل مرة يحدث فيها يستشعر غاية الزهو السعادة.

وفيما بعد وربما كان على الارجح بحسب التقصيات التي تمت قبل الحلم مباشرة تفشي وباء بين الخراف وبعث أبوه الى احد اتباع المراكز الصحية لتطعيم الخراف، ولكن مات منها بعد التطعيم اكثر مما مات قبله.

كيف حدث أن كانت الذئاب فوق الشجرة؟ حكى له جده حكاية كما يلي «كان خياط جالساً الى عمله في مشغله عندما فتحت النافذة وقفز منها ذئباً الى الداخل فاسرع الخياط وضربه بمقياسه فأمسك بذيله واقتلعه بحيث ارتعب الذئب ولاذ بالفرار، وبعد حين من الوقت ذهب الخياط الى الغابة وفجأة رأى فصيلاً من الذئاب تتقدم نحوه فتسلق فوق شجرة هرباً منها، ارتبكت الذئاب في البداية ولكن الذئب المبتور الذيل كان فيها فأراد ان ينتقم لنفسه من الخياط. اقترح على الذئاب ان يعتلي الواحد ظهر الآخر بحيث يستطيع الآخر أن يبلغ الى الخياط، فكان عليه وهو عتيق قوي ان يجعل نفسه قاعدة لهذا الهرم وقامت الذئاب بتنفيذ ما اقترحه، ولكن الخياط تعرف على ذلك الذئب الذي كان قد اقتلع ذيله، وصاح فجأة على نحو ما فعل من قبل امسكوا هذا الرمادي من ذيله فارتعب الذئب المبتور الذيل من الذكرى ولاذ بالفرار، فهوت الى الارض كل الذئاب الاخرى.

وكل هذه التداعيات لا تخلو من تلميح لعقدة الخصاء، والذئب العتيق قد عانى بتر الذيل على يد الخياط وذيول الثعالب التي كانت للذئاب في الحلم ربما كانت ضرباً من التعويض عن هذا التغيب للذيل...

لماذا كان هناك ستة او سبعة من الذئاب؟ بدا أن لا جواب على هذا السؤال.

ولكن خطر لفرويد تساؤل صرح به للمريض: تلك الصورة التي كانت ترعبه في طفولته ألا يمكن أن تكون في الواقع مرتبطة بحكاية «ذات القبعة الصغيرة الحمراء» فهذه الحكاية الخرافية لا تنتج في الواقع مجالاً إلا لصورتين أيضاً هما لقاء ذات القبعة الصغيرة الحمراء مع الذئب في الغابة والمشهد الذي يرقد فيه الذئب في الفراش وهو يلبس قلنصوة الليل التي كانت تلبسها الجدة، ومن ثم فلا بد أن تكون هناك حكاية خرافية اخرى وراء ذكر هذه الصورة عنده وسرعان ما تبين المريض ان تلك الحكاية لا يمكن ان تكون إلا حكاية الذئب والعنيزات السبع، فهنا يرد العدد سبعة وأيضاً العدد ستة لأن الذئب لم يأكل إلا ستة من العنيزات السبع، لأنه السابعة قد اختبأت في ساعة الحائط. وكذلك اللون الأبيض يرد في هذه الحكاية لأن الذئب غطى قدميه بالأبيض عند الخباز بعد أن تعرف عليه...

العنيزات في زيارته الأولى من قدمه الرمادية:

ففي كلتيهما يوجد الالتهام وسعة البطن واخراج الناس اللذين التهموا، ووضع حجارة ثقيلة في مكانهم، وفي نهاية كليتهما يهلك الذئب الوغد.

المشهد البدائي:

ومنذ عامه العاشر فصاعداً كانت تعتريه بين حين وآخر نوبات اكتئاب. كانت تظهر عنده عادة بعد الظهر فتبلغ ذروتها في الساعة الخامسة تقريباً.

وإن الساعة الخامسة هي أنها كانت وقت دورة الحمى أو وقت ملاحظة الجماع، ونحن نفترض أن وقت الجماع كان عمر الطفل السنة والنصف وعلى هذا التحديد فسوف يكون الطفل نائماً في سريره الصغير في غرفة والديه ثم أستيقظ بسبب ارتفاع الحرارة عنده بعد الظهر وربما في الساعة الخامسة، وهي الساعة التي تميزت فيما بعد بالاكتئاب، ومما يتناغم مع افتراض المحلل بأن ذلك الوقت كان يوم صيف قائظ، أن يكون الأبوان قد خلداً الى القيلولة الى الراحة نصف عاريين. «في ملابس داخلية بيضاء»[1].

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٠١.

الذئاب بيضاء:

وعندما استيقظ الطفل شهد جماعاً من الخلف، وهذا الوضع شبيه بالوضع الحيواني، ظهر المرأة لبطن الرجل مع اتصاله بها في المهبل وقد تكرر هذا المشهد ثلاث مرات، وكان بوسعه ان يرى العضو التناسلي لأمه وعضو أبيه أيضاً وقد فهم العمليه كما فهم دلالتها[١].

إن خطوات تحويل المعطيات من المشهد البدائي الى حكاية الذئاب الى حكاية العنيزات السبع، إنما تعكس تطور أفكار الحالم اثناء بناء الحلم من حبابته للاشباع الجنسي من أبيه الى تبنيه ان الخصاء شرط ضروري لذلك الى خوفه من ابيه وعلى ما سبق فأن حلم الحصر قد اكتمل تفسيره تماماً.

وكذلك بعدما سبق عن تفسير حول الحلم وبلوغاً الى التقييم الصحيح لفوبيا الذئب حسبنا ان نضيف بأن أباه وأمه كليهما قد أصبحا ذئبين اضطلعت أمه في واقع الأمر بدور الذئب المبتور «المخصى» الذي سمح للآخرين بأن يعتلوا ظهره واضطلع أبوه بدور الذئب الذي يعتلي، ولكن المريض كما سمعنا يؤكد لنا ذلك لم يكن يخاف إلا من الذئب الواقف اي من أبيه.

ومما ينبغي أيضاً ان يستلفت انتباهنا إن الخوف الذي انهى حلم الصبي يجد نموذجاً في حكاية جده، فالذئب المبتور «المخصى» في هذه الحكاية وهو الذي سمح للآخرين بأن يعتلوا ظهره، قد استولى عليه الرعب لحظة تذكره بانبتار ذيله. وهكذا يبدو الأمر وكان الصبي قد توحد في الحلم مع أمه المخصية وراح عندئذ يناضل ضد هذا التوحد.

وبوسعنا أن نتمثله يقول لنفسه «لو اردت أن تبلغ الى اشباع جنسي من أبيك يتحتم عليك أن ترضى بالخصاء لأمك، ولكني لا اريد ذلك»[٢].

باختصار احتجاج واضح من جانب ذكورته.

---

(١) المصدر نفسه ص ٧١٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٧٢٥.

حفزة عدائية ضد أبيه ظهرت الى الوجود تحت تأثير حلم العصر ولم تكن عدائيته ضد الله في نهاية الأمر إلا انبعاثاً لهذه الحفزة فالتياران المتضادان من المشاعر اللذان كان عليهما أن يحكما حياته اللاحقة يلتقيان هنا في صراع التناقض العاطفي الذي تدور رحاه على أرض الدين[1].

وكانت هناك أعراض قهرية اخرى أقل نمطية تشير بنفس الدرجة من اليقين الى أبيه، ولكنها تكشف في نفس الوقت عن الصلة ما بين عصابه القهري والاحداث الباكرة من حياته...

---

(١) خمس حالات من التحليل النفسي، تأليف سيجموند فرويد، ترجمة د. صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق، تقديم ومراجعة الدكتور مصطفى زيعور، الجزء الثاني، مكتبة الانجلو المصرية ص ٧٣٠.

تحليل طفلي

«هانز الصغير»

هانز يبلغ من العمر أربع سنوات وثمانية أشهر، أصيب في مطلع ١٩٠٨ م برهاب حاد من الجياد. وكان والد هانز من مريدي فرويد، حيث أنه كان من المترددين على محاضراته ومن القارئين لمؤلفاته. وكانت حالة الرهاب لدى هانز قد ظهرت بعد أشهر من ولادة اخت له اسمها «آنا» وتبدى رهابه في رفضه الخروج خوفاً من أن يعضه في الطريق حصان.

كان هانز طفلاً ذكياً ومجتهداً وعمل والديه على تربيته تربية حرة دون اكراه أو قيد على أي شيء بقدر الامكان وكان لديه فهماً كبيراً الى المعرفة، ولا يتوقف عن طرح الأسئلة.

ولشدة ذكائه كان فرويد يستشهد ببعض اقواله وملاحظاته التي تنم عن تبكير الاطفال الى الاهتمام بألغاز الحياة الجنسية في مقال نشره ١٩٠٧ م عن الشروح الجنسية التي تعطي للأطفال مؤكداً أنه صبي صغير مدهش[١].

والد هانز هو الذي تولى تحليله وعلاجه تحت اشراف فرويد، ولم يتدخل فرويد بصورة مباشرة في مجريات التحليل إلا مرة واحدة، وشفي هانز بعد اربعة شهور من التحليل، ومما ساعد على اختصار المسافة الزمنية، أن والد هانز كان قد دون ملاحظات مفصلة عن سلوك هانز قبل أن يتم عامه الثالث، وعندما ظهر لدى الصبي الصغير رهاب الجياد بعد زهاء سنتين قامت تلك الملاحظات المدونة من قبل الأب مقام التقرير عن تاريخ الحالة.

---

(١) التحليل النفسي لرهاب الاطفال «هانز الصغير» سيجموند فرويد ـ ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت.

إن الظمأ الى المعرفة عند هانز يبدو لصيق الصلة بحب الاستطلاع الجنسي، وكان حب الاستطلاع لدى هانز ينصب في المقام الأول على ابويه.

وكان شديد الملاحظة وخاصة عندما تخلع والدته ثيابها وكذلك والده، وكان يسألهم عن اعضائهم التناسلية وهل تشبه عضوه التناسلي... غير أن الحدث الأكبر في حياة هانز كان ميلاد اخته آنا، عندما كان له من العمر ثلاثة أعوام ونصف عام بالضبط، وقد دون ابوه سلوكه بهذه المناسبة في الحال.

فكان هانز شديد الغيرة من الوافدة الجديدة، وما من أحد يمتدحها بقوله أنها جميلة أو لطيفة او... الخ حتى يرد بسرعة لكن ليس لديها اسنان بعد.

وبالفعل حين وقع نظره عليها للمرة الأولى اخذته دهشة بالغة من أنها لا تستطيع أن تتكلم وأعرب عن اعتقاده بأنها لا تستطيع الكلام لأنه ليس لها أسنان، وكان من الطبيعي أن لا يهتم بكل ما يدور حول اخته، فأصيب فجأة بذبحة لوزية وسمعناه في اثناء الحمى يعلن «لكنني لا اريد اختاً صغيرة».

ولقد دون الأب لحسن الحظ اشياء كثيرة ارتدت فيما بعد أهمية غير متوقعة. كنت ارسم زرافة لهانز الذي تردد كثيراً في الآونة الأخيرة على حديقة الحيوان «في شونبروت» فقال لي ارسم «فرفورتها أيضاً» عضوها التناسلي فأجبته ارسمها بنفسك عندئذ اضاف خطاً أسفل بطن الزرافة قائلاً هذه فرفورتها.

قد مررت وبرفقتي هانز بحصان كان يبول فقال هانز ان للحصان فرفورة ثمته مثلي وشاهد تحميم اخته التي صار لها من العمر ثلاثة أشهر، فقال للبهجة من الاشفاق إن لها فرفورة صغيرة جداً وبعد سنوات ستكبر آنا وتكبر بالطبع فرفورتها.

وأهديت اليه دمية ليلعب بها فجردها من ثيابها وتفحصها بدقة وقال لكن فرفورتها صغيرة جداً وقد رأينا من قبل أن هذه الصيغة تتيح له أن يواصل اعتقاده بالكشف عن الاعضاء التناسلية للحيوانات، حيث أن الحيوانات تدين بجانب غير قليل من الاهمية التي تصبغها عليها الاساطير والحكاية الخرافية بالطريقة المكشوفة التي تظهر بها اعضاؤه التناسلية ووظائفها الجنسية امام الطفل البشري الصغير الذي يتأكله الفضول وحب الاستطلاع وليس ثمة ريب يحوم حول الاستطلاع الجنسي لدى صغيرنا هانز.

تاريخ المرض والتحليل:

أرجح الظن أن التربية قد تهيأت لديه من جراء اثارة جنسية زائدة عن الحد. نجمت عن حنان أمه. لكني لا أستطيع تحديد العلة المباشرة للاضطرابات ويبدو أن خوفه من أن يعضه حصان في الشارع مرتبط علىء نحو ما بارتعابه من قضيب كبير فهو قد لاحظ في سن مبكرة كما تعلم أثناء وجوده في حديقة الحيوان بأنه قد رأى قضيباً كبيراً للحصان، فهو قد لاحظ أن الخيل كبير وأمه كبيرة فيجب بالتالي أن يكون قضييب أمه كبيراً.

وفي أحد الأيام صممت والدته على أن تقتاده بنزهة الى حديقة شونبرون، حيث يطيب له الذهاب عادة لتتبين والدته حقيقة الأمر الذي يدعوه الى البكاء والخوف والقلق من ذكر اسم الحصان امامه.

فبكى الطفل من جديد رافضاً الخروج الى هذا المكان غير أنه في نهاية الأمر وافق على الخروج مع والدته الى النزهة.

وفي طريق العودة من النزهة قال لأمه بعد صراع داخلي كبير «كنت خائفاً من أن يعضني حصان».

كانت امارات القلق قد بدت عليه بالفعل لدى مرآه حصان في شونبرون، وفي المساء اعترته على ما يبدو نوبة مماثلة لنوبة مساء اليوم السابق ، وطلب أن تكون أمه قريبة منه، وامكنت تهدئته وقال باكياً «اعرف أنه سيكون علي غداً أن أذهب من جديد للنزهة» ثم أضاف «الحصان سيأتي الى الغرفة».

وفي ذلك اليوم نفسه سألته أمه «لعلك تضع يدك على فرفورتك؟» فأجاب «نعم» كل مساء حين أكون في فراشي وفي اليوم التالي جرى تحذير لهانز قبل قيلولته من أن «لا يلامس فرفورته» وعندما استيقظ سئل عما حدث.

فأجاب أنه لامسها على كل حال لهنيهة من الزمن.

فالطفل لا يستطيع أن يدرك مما هو خائف. وحين لم يشأ هانز بعد نزهته الأولى مع الخادمة أن يفصح عما هو خائف منه فذلك بكل بساطة لأنه لا يعلمه بعد.

وقد قال كل ما يعرف أنه يفتقد أمه في الشارع. أمه التي يمكن له أن ينطلق بحرية معها، وأنه لا يريد الابتعاد عنها[1].

وهكذا يناظر الحصر عنده صبابة ليبيدية مكبوتة غير أنه ليس هو بحد ذاته هذه الصبابة، فلا بد من أن يؤخذ الكبت ايضاً بعين الاعتبار، إن الصبابة تنقلب بكليتها الى اشباع إذا ما تأمن لها الموضوع الذي تشتهيه، فالحصر يبقى مستمراً حتى لو توفرت امكانية لاشباع الصبابة، والحصر لا يعود للتحول بكليته الى ليبيدو وثمة شيء يبقى على الليبيدو في حالة كبت، وقد تبين أن هذا هو واقع الحال لدى هانز حينما صحبته أمه في النزهة التالية. فمع أنه كان في هذه المرة مع أمه فقد ساوره حصراً أي صبابة غير مشبعة متوجهة نحو الامام.

صحيح إن الحصر كان أقل إذا ارتضى هانز بأن يقتاد الى النزهة على حين كما أنه أرغم الخادمة على اعادته الى البيت .

هذا الى أن الشارع ليس بالمكان المناسب له، الانطلاق بالحرية أو لأي شيء آخر مما كان يمكن أن يتوق العاشق الصغير الى فعله، غير أن الحصر صمد للامتحان.

ولا بد الآن أن يجد له موضوعاً وفي اثناء تلك النزهة عبر هانز لأول مرة عن خوفه من أن يعضه حصاناً.

وقبل الخوض في الموضوع بشكل أكثر تفصيلاً لزم علينا أيضاً أن نقول كلمة حق انصافاً لوالدة هانز العظيمة، فالأب يتهمها بأنها تسببت في تمخض العصاب من جراء غلوها في احاطة الطفل بالحب ومبالغتها المجاوزة للحد في اخذه لفراشها.

ولقد اتفق فرويد مع والد هانز على أن يقول له إن كل قصة الأحصنة تلك ليست إلا حماقة وكان على أبيه أن يقول له إن الحقيقة هي أنه «هانز» مغرم جداً بأمه ويريدها أن تأخذه الى فراشها، ولأن فرفورة الحصان أثارت اهتمامه الى هذا

---

(١) التحليل النفسي لرهاب الاطفال «هانز الصغير» ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، ص ٣٢، ٣٣.

الحد فقد بات الآن يخشى الاحصنة وأنه «هانز» قد لاحظ بأنه ليس من المستحسن الانشغال الى هذا الحد «بالفرفورات» ولا حتى بفرفورته هو.

وإن وجهة النظر هذه كانت صائبة تماماً فضلاً عن ذلك مع الأب أن يشرع بتنوير هانز بصدد بعض الامور الجنسية، وكما كان سلوك الطفل الماضي يبيح لنا أن نفترض بأنه تبقى الليبيدو عنده متشبثاً بالرغبة في رؤية فرفورة أمه ومن ثم اقترح فرويد على والد هانز أن يلغي هذا الهدف لرغبة هانز بإفهامه أن امه وسائر الكائنات الأنثية لا تملك على الاطلاق فرفورات. وهو ما يمكنه أن يتأكد من ذلك من خلال رؤيته لأخته «آنا».

ومن خلال التقارير الأسبوعية التي يرفعها والد هانز الى فرويد يتضح أن خوف هانز من أن يعضه حصان هو بالتحديد حصان أبيض فقط لا غير، وأن الرهاب من الأحصنة لا يشمل جميع أنواع الأحصنة، وخاصة التي تجر عربات البائعين أو العربات التي تحمل أمتعة الراحلين من مكان الى آخر في نفس المدينة أو التي تستخدم في محطات السكك الحديدية وحتى الأحصنة الصغيرة.

وموضوع الرهاب هو أحصنة تقع وتعض وأحصنة من نوع خاص وعربات ثقيلة الحمولة.

وبوسعنا الكشف عن أن جميع هذه الخصائص ترجع الى أن الحصر لم يكن له في الأصل من صلة بالأحصنة ولكنه انزاح ثانوياً باتجاه الأحصنة وتثبت عندئذ على عناصر عقدة الأحصنة وهي العناصر التي تكشف بأنها موائمة لبعض التحولات وهناك كنتيجة أساسية توصل اليها استقصاء والد هانز تتعلق بالمناسبة المباشرة التي ارتبط بها تفجر الرهاب. كان ذلك حين رأى الصبي الصغير حصاناً كبيراً ثقيلاً يقع ويبدو أن أحد التأويلات الممكنة لهذا الانطباع القوي كان ذاك الذي أشار اليه الأب. فقد ساورت هانز الرغبة عنئذ في أن يقع أبوه بالطريقة نفسها ويموت وأغلب الظن أن تعابير وجه هانز الحادة وهو يروي القصة كان مردها الى هذا المعنى اللاشعوري. ولكن أليس من المحتمل أن معنى آخر يختفي وراء هذا كله وما دلالة ذلك الضجيج الشديد بالأرجل.

كان هانز يلعب لعبة الأحصنة في الغرفة، فكان يجري ويقع ويرفس بقدميه في كل اتجاه، ويصهل وذات يوم علق برقبته كيساً صغيراً، كما لو أنه مخلاة وفي أكثر من مرة ركض نحوي وعضني، وهو هنا قد قلب الأدوار وتم تحويلها، فأصبح هو الحصان ووالده هو هانز وهو الذي يعض اباه وصار هو الحصان.

تعليـــق:

ان أساس المشكلة عند هانز والمتعلقة بحياته الجنسية هو اهتمامه البالغ الحدة «بفرفورته» كما يسمي هذا العضو حسب استخدامه ووظيفته.

وهذا الاهتمام جعل هانز باحثاً مستقصياً، فاكتشف أنه من الممكن تميز الحي من الجامد تبعاً لوجود فرفورة، واتضح ذلك عندما رأى الأحصنة تبول والأرض لا تبول أو الكراسي او الطاولات تبعاً لوجود فرفورة او لعدم وجودها.

وقد صادر على اهمية هذا العضو من البدن لدى جميع الكائنات التي تصورها مماثلة له، ولاحظ وجودها عند الحيوانات الكبيرة، وخاصة في حديقة الحيوانات والشوارع، وافترض أن والديه كلاهما مجهزان به، ولم يغير هذه الفكرة حتى امام شهادة عينية معزياً وجوده الى أخته التي ولدت لتوها.

ويمكننا القول إنها ستكون بمثابة صدمة لو أنه اضطر الى التسليم بعدم وجود هذا العضو لدى كائن مماثل له لأن هذا سيؤدي الى توقع فقده عنده أيضاً. وربما كان هذا هو السبب في أن امه عندما هددته باحتمال خسارة فرفورته لم يجد هذا التهديد مكاناً في فكره ولم يظهر أثره إلا في وقت لاحق. وكان الحافز الى تدخل الأم أن هانز كان يطيب له أن يتدبر لنفسه أحاسيس لاذة بملامسته لعضوه الصغير. إن اللذة التي حصل عليها هانز من خلال ملامسته لعضوه الجنسي ترتبط من خلال صيرورة «أدلر» التي أسماها «تشابك الدوافع الغريزية» بشقيها الايجابي والسلبي.

فالصبي يتحين الفرصة لرؤية فرفورة الآخرين، وفضوله الجنسي ينمو ويتطور ويحلو له في الوقت نفسه أن يرى الآخرين فرفورته وينطوي حلم من احلامه يعود تاريخه الى الآونة الأولى للكبت على رغبته في أن تساعده واحدة من صديقاته الصغيرات على الفرفرة أن ان تشاركه في المشهد في أن تكشف عن عضوها التناسلي والذي يسميه هانز «فرفورتها».

ويتضح الجانب الايجابي من هذه الدوافع في أن كثيراً ما كان هانز يشتكي مراراً وتكراراً لأبيه وأمه على حد سواء من أنه لم ير قط بعد «فرفورتهما» فأرجح الظن أن دافعه الى ذلك كان الحاجه الى المقارنة.

فالأنا هو على الدوام الجهاز الذي به يتعرف الفرد على العالم وعن طريق المقارنة الدائمة مع ذاته يبدأ بفهم العالم. وقد لاحظ هانز أن الحيوانات الكبيرة لها فرفورات أكبر نسبياً من فرفورته، ولهذا افترض أن ذلك ينحسب ايضاً على والديه، وتمنى لو تحقق من ذلك. وقد تصور أن لأمه بكل تأكيد فرفورة مثل الحصان ومن ثم تسلح بهذا العزاء الجاهز أن فرفورته ستكبر معه ويبدو أن رغبة الطفل في أن يكبر قد تركزت على عضوه التناسلي.

إن ميلاد أخته قد حفز هانز على بذل مجهود عقلي ما كان له أن يتأدى الى نتيجة مباشرة ومستمرة. وكان من المحتم أن يجبره ذلك الى صراعات، والمعضلة الكبيرة التي عايشها هي كيف يأتي الأطفال؟

وهذه المعضلة الأولى هي التي تسبب في استنفار قوى الطفل العقلية حتى يتسنى له الاجابة على هذا السؤال الغريب مما دفعه الى اللجوء لسؤال والديه وخاصة والدته عساه أن يجد عندها الجواب لما يدور في داخله في صراع فكري مستمر.

وقد نبذ هانز فكره طائر اللقلق الذي يأتي بالاطفال وهذه فكرة اسطورية لا تحمل التفسير المنطقي الذي يتمنى الطفل في أن يصل إليه وهو بالفعل قد لاحظ أن أمه قد بدأ ينتفخ بطنها في الشهر الأول وتدريجياً بدأ بطنها في التضخم حتى جاءت المولودة «آنا». وكان في مقدور هانز أن يتصور عملية الولادة وحضور الطبيب والقابلة لمساعدة والدته.

فكيف إذن جاء طائر اللقلق واحضر معه «آنا».

وكذلك كان هانز يتصور أن للوالد دوراً في هذه العملية لأنه يصرح دائماً بقوله أن هانز وأنا هما طفلاه، إذن له دوراً ايجابي في هذا الأمر، وهذا ما ينفي لدى هانز اكذوبة اللقلق الذي رواها له والده بالاضافة الى ما كان يصدر من والد هانز

من صراخ وضيق عندما كانت والدة هانز تصطحبه معها الى فراشها. فكل هذا الأمر وغير من أمور كثيرة جعلت من والد هانز غريماً له يتمنى موته نهائياً..

إن اعتبارات متصلة بتسلسل الاحداث الزمني تمنعنا من أن نعلق أهمية أكبر مما ينبغي على العلة الظريفة لتفجر المرض لدى هانز. إذ كانت علامات الخوف والتوجس قد ظهرت لديه قبل وقت طويل من رؤيته للحصان يقع في الشارع على أن العصاب ارتبط ارتباطاً مباشراً بهذه الحادثة العارضة واحتفظ منها بأثر تجلى في رفع الحصان الى مرتبة موضوع الحصر.

فالانطباع الذي تلقاه هانز لما رأى الحصان يسقط لم يكن ينطوي بحد ذاته على أي قوة صادمة، والحادث الذي وقع عليه نظر هانز مصادفة واتفاقاً لم يكتسب فاعليته الأمراضية الكبيرة وإلا بفضل ما كان للحصان من قبل من أهمية عند هانز كموضوع للاهتمام والايثار والا بنتيجة الارتباط مع هذا الحادث الآخر الأكثر اتساماً بالسمة الرضية الذي كان وقع في مدينة تموندون وهي مدينة في احدى ضواحي فيينا حينما سقط «فريتزل» وهو يلعب لعبة الحصان مما فتح طريق التداعي الذي تأدى بهانز بيسر وسهولة من فريتزل الى الأب.

وأرجح الظن أن هذه الارتباطات كلها ما كانت لتكفي لولا أن الانطباع ذاته تكشف أيضاً بفضل مرونة علاقات التداعي والتباسها عن أن قسمين بأن يوقظ ثانية العقد التي كانت كامنة متربصة في لا شعور هانز أي عقدة ولادة أمه الحامل. وقد بدأ من تلك اللحظة غدا الطريق مفتوحاً امام المكبوت وقد تمت هذه العودة على النحو التالي: «إن المادة المرضية قد اعيد تشكيلها وجرت ازاحتها على عقدة الحصان وحولت جميع الوجدانات المصاحبة لها على حد سواء الى حصر».

ومما تجدر ملاحظته أن المضمون الفكري لفوبيا هانز على نحو ما كان عليه عندئذ كان لا بد أن يعاني عملية اخرى من التخريف والابدال قبل أن يكون بوسع هذا المضمون أن يبلغ الى الشعور.

كانت الصيغة اللفظية الأولى التي عبر بها هانز عن حصره هي «الحصان سوف يعضني» وكان ذلك مشتقاً من حدث آخر جرى في «جموندن» وكان يرتبط

من ناحية برغباته العدوانية ضد أبيه، ويذكره أيضاً من ناحية اخرى بالتحذير الذي كان قد تلقاه ضد الاستنماء.

ومن الواضح أنه في كل موضع كانت عقدة العدائية عند هانز ضد أبيه تحجب عقدته الشهوية اتجاه امه تماماً كما كانت الأولى تكشفاً وتصفية في التحليل.

مضمون الفوبيا كان على نحو بحيث يتحتم أن يلزم عنه تقييداً كبيراً لحرية الحركة وكان ذلك ايضاً ما تستهدفه الفوبيا.

ومن هنا فقد كانت هذه الفوبيا ردّ فعل قوية ضد الحفزات الحركية الغائمة المتجهة بصفة خاصة الى أمه.

فالحصان عند هانز كان دائماً يمثل لذة الحركة «إني حصان صغير» هكذا كان يقول هانز وهو يثب في كل اتجاه. ولكن بالنظر الى أن لذة الحركة هذه كانت تتضمن حفزة الجماع، وهكذا يبدو الأمر وكأن الغرائز المكبوتة لم يبق لها من شيء في العصاب الأشرف تزويد الحصر بتعديلات تبرر ظهوره في الشعور. ولكن كائناً ما كان وضوح هذا الانتصار للقوى المضادة للجنسية في فوبيا هانز إلا أنه بالنظر الى أن هذا المرض هو بحكمه طبيعية ذاتها مصالحة فليس من الممكن أن يقف نصيب هذه الغرائز المكبوتة عند هذا الحد.

ففوبيا هانز من الأحصنة هي في نهاية الأمر عقبة تحول دون خروجه الى الشارع ومن ثم يمكن أن تكون وسيلة له بأن يبقى في البيت مع أمه الحبيبة[1].

فمن خلال الفوبيا ذاتها تشبث العاشق الصغير بموضوع حين وإن كانت اجراءات قد اتخذت بالتأكيد لتجعل هانز عديم الايذاء. حيث أن الطابع الحقيقي لاضطراب عصابي إنما يتبدى في هذه النتيجة المزدوجة.

كما أن بنية العصاب واتساع مجاله عند هانز قصيرة جداً، حيث أن تاريخ الحالة ونوبة العصاب عند هانز قصيرة جداً، وما كانت نوبته لتبدأ وتمتد الى موضوعات جديدة تفرض شروطها في العلاج حتى بدأ علاجه على يد عالم التحليل النفسي ورائد مدرستها «فرويد».

---

(١) خمس حالات من التحليل النفسي «الجزء الأول» تأليف سيجموند فرويد» ترجمة د. صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق تقديم مصطفى زيعور. مكتبة الانجلو المصرية.

المـراجـع

مراجـع عامـة:

١ - رالف ر. غرينسون: في التحليل النفسي وممارسته. ترجمة ميخائيل أسعد عبد الرزاق، دار الآفاق الجديدة ١٩٨٨ .

٢ - روكلان موريس: تاريخ علم النفس، ترجمة علي زيعور، دار عويدات ١٩٧٧.

٣ - رشيد لنجرسول: التحليل النفسي والسلوك الاجتماعي، ترجمة سامي علي حمود، دار المعارف ١٩٧٠.

٤ - فهمي مصطفى: علم النفس الاكلينيكي، مكتبة مصر ١٩٦٧.

٥ - كيلي وكوفالزون: المادية التاريخية، ترجمة بدر الدين السباعي، دار الجماهير ١٩٧٠.

مراجـع خاصـة:

١ - اوتو فينخل: نظرية التحليل النفسي في العصاب، ترجمة مخيمر، الانجلو المصرية ١٩٦٩.

٢ - فرويد آنا: الأنا وميكانيزمات الدفاع، ترجمة مخيمر ورزق، الانجلو ١٩٧٢.

٣ - فرويد سيجموند: مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي، ترجمة طرابيشي، دار الطليعة ١٩٧٩.

٤ - فرويد سيجموند: خمسة دروس في التحليل النفسي، ترجمة طرابيشي، دار الطليعة ١٩٨٠.

٥ - فرويد سيجموند: مدخل إلى التحليل النفسي، ترجمة طرابيشي، دار الطليعة ١٩٨٠.

٦ - فرويد سيجموند: قلق في الحضارة، ترجمة طرابيشي، دار الطليعة ١٩٧٩.

٧ - فرويد سيجموند: محاضرات جديدة في التحليل النفسي، جورج طرابيشي، دار الطليعة ١٩٨٠.

٨ - فرويد سيجموند: النظرية العامة للأمراض العصابية، ترجمة طرابيشي، دار الطليعة ١٩٨٠.

٩ - فرويد سيجموند: علم ما وراء النفسي، ترجمة طرابيشي، دار الطليعة ١٩٧٩.

١٠ - فرويد سيجموند: نظرية الأحلام، ترجمة طرابيشي، دار الطليعة ١٩٨٠.

١١ - فرويد سيجموند: الحلم وتأويله، ترجمة طرابيشي، دار الطليعة ١٩٨٠.

١٢ - فرويد سيجموند: مختصر التحليل النفسي، ترجمة طرابيشي، دار الطليعة ١٩٨١.

١٣ - فرويد سيجموند: ثلاث مباحث في نظرية الجنس، ترجمة طرابيشي، دار الطليعة ١٩٨١.

١٤ - فرويد سيجموند: الذات والغرائز، ترجمة محمد عثمان نجاتي، النهضة المصرية ١٩٦١.

١٥ - فرويد سيجموند: معالم التحليل النفسي، ترجمة محمد عثمان نجاتي، النهضة المصرية ١٩٥٨.

١٦ - فرويد سيجموند: القلق، ترجمة محمد عثمان نجاتي، النهضة المصرية ١٩٦٢.

١٧ - فيصل عباس: الشخصية في ضوء التحليل النفسي، دار المسيرة ١٩٨٢.

١٨ - ليبين ڤاليري: مذهب التحليل النفسي وفلسفة الفرويدية الجديدة، دار الفارابي ١٩٨١.

١٩ - لازاروس ريتشارد: الشخصية، ترجمة محمد سيد غنيم، دار الشروق ١٩٨١.

مراجع باللغة الأجنبيـــة:

1 - Alexandre Franz: principes de psychanalyse Payot 1968.

2 - Freud. S: de la Technique psychanalytique P. U. F. 1953.

3 - Klein. M.: Essais de Psychanalyse, Payot 1967.

4 - Vianu 1: introducere in psihoterapie, editura Dacia 1975 Bucuresti.

5 - Paul. Popescu, N: personalitatea si Cunoasterea ei edituranilitara 1969 Bucuresti.

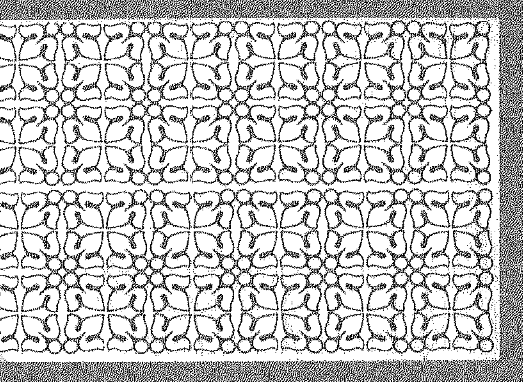
6 - Weiner. B. 1: Clinical Methods in psychology series Editor 1983.



الفهرس








دار الفكر العربي
بيروت